قدري قلعجي

شوپان

نشيد الحرية والوطنية

اعلام الحرية

٦

دار العلم للملايين

نيسان ١٩٤٧

« ان الفن الحقيقي هو الفن الذي ينبع
من روح الوطن ، وانما روح الوطن هي
شعبه ، ففي اعماق الشعب تكمن عبقرية
الوطن وقوته الفعالة »

فردريك شوبان

اسرة حرة في وطن مستعبد

●

كان ابناء فرسوفيا الأسيرة ينتظرون قائداً كبيراً من قوادهم ، بعد نضال عنيف ودم مهدور وأمل مخفق .

بعد سنة ١٨١٢ واخفاق نابوليون ، وبعد سنة ١٨١٤ وزحف الجيوش الروسية ، وبعد معركة واترلو وسانت هيلانة ، اضطرت بولونيا ان تخضع للقيصر الكسندر ، وعاد الامير جوزيف بونياتوفسكي ، آخر جنود هذه الأمة المغلوبة ، الى عاصمة وطنه ، مسجى في نعشه ، يحف بـه الجنود الذين شهدوا مآثره وحضروا استشهاده ، وخلفه جمهور من الكهان والقواد وأبناء الشعب يسيرون على وقع لحن الموتى ولما وصل هذا الموكب الرهيب الخاشع ، الى امام كنيسة الصليب المقدس ، تضاعفت روعته وازداد جلاله ، اذ امتزجت اصوات الأجراس وطلقات المدافع والحان الأناشيد ، بنحيب الشعب المفجوع وعويل النساء الثواكل وبكاء الأطفال الذين فقدوا آباءهم في معارك الكفاح من أجل الحرية

وكان فريدريك شوبان * حينذاك في الرابعة من عمره

---

* Frédéric Chopin

أصبح القيصر الكسندر ملكاً على بولونيـــا ، والغراندوق قسطنطين وصياً في فرسوفيا . وفي كل يوم ، كان الغراندوق يقبل على جواده الى ساحة ساكس ، محاطاً بحاشيته وأعوانه ، فيعرض على أنغام الموسيقى ، الجيوش الروسية ذات الثياب البيضـــاء والقبعات المصنوعة من فرواء استراخان ، والجيوش البولونية بثيابها الوطنية وسيوفها المحنيـــة ، فتفرغ الآلات النحاسية على الاغاني الشعبية طابعاً سوداوياً حزينـــاً . وفردريك شوبان يصغي من نافذته الى تلك الألحان كالمأخوذ ، فلا تعجب أمه لاستغراقه وقد عرفت فيه رهافة الحس وفيض الشعور منذ تلك السن الباكرة التي لم يكن ينام فيها الا على هدهدة اغانيها القروية ، وتظل في مجثمها امام النافذة ساعات طوالا وهو في حضنها يراقب بذهول كيف تجري أصابع الموسيقيين على آلاتهم المتعددة ، ويصغي الى انغامهـا الشجية فيبكي تارة ويضحك تارة اخرى .

وكان ابوه نيقولا شوبان في ذلك الحين مدرساً للغة الفرنسية في مدرسة فرسوفيا الثانوية التي يديرها صاموئيل بوغو ميل لاند . وقد استطاع ان يكسب صداقة العائلات التي اخذ يختلف اليها منـــذ وصوله الى بولونيا . فهو فرنسي من نانسي ، أو هو بولوني الأصل هاجر ابوه الى فرنسا وانجبه فيها . ذلك أمر ما يزال يختلف فيـه المؤرخون ، يريد فريق منهم ان يجعل من فردريك شوبان فرنسي الاصل بولوني المولد ، ويريد آخرون ان يجعلوا منه بولونياً صرفاً ، والذي نعرفه نحن ان موسيقى هذا النابغة ، وهي روحـه الخالدة على الايام ، منتزعة من اعمـاق بولونيا وأعماق شعبها ، فهو اذن

بولوني لأن عبقريته المبدعة قد تفتحت في ربوع بولونيا . ومن ارض هذه البلاد ومن روح شعبها ومن كفاحها وطموحها استمد الهامه ووحيه . لكن الحان شوبان ، وان كان قد عبر فيها عن جمال الأرض البولونية وحياة الشعب البولوني ، ليست لبولونيا وحدها بل للعالم كله ، شأنه في ذلك شأن كل عبقري ضاعف ثروة الفكر والقلب الانسانيين ، فاصبح ملكاً لجميع الناس الذين يستجلون آفاق الفكر الرحيبة ويحسون فيها بقرابة تربطهم بالدنيا كلها وبالناس جميعاً .

ولكن المؤرخين الذين يختلفون في النسب الذي تحدر منه نيقولا شوبان ، يتفقون على انه ان لم يكن فرنسي الأصل فهو فرنسي النشأة فرنسي الخلق والطبع ، وانه لما بلغ سن الثامنة عشرة دعاه رجل فرنسي يدير مصنعاً للتبغ في فرسوفيا كي يكون محاسباً لديه ، فقدم الى بولونيا في اوائل سنة ١٧٩٠ ، وما لبث ان اضحى مواطناً بولونياً شأن غيره من المواطنين ، فاحتفل معهم في ٣ ايار سنة ١٧٩١ باقرار الدستور والحريات الديموقراطية ، وانتظم في الحرس الوطني للذود عن استقلال بولونيا مدفوعاً بحبه العظيم للحرية وتعلقه بالمثل الديموقراطية العليا . ثم انشأ يعطي دروساً خصوصية في اللغة الفرنسية . وفي سنة ١٧٩٥ تعرف بستاروسينا لاشينسكا زوجة مدير الأرزاق الملكية فعهدت اليه بتربية اولادها ، فبقي في قصرها ثمانية أعوام ، ثم انتقل الى قصر المركيزة سكاربيك في ضواحي فرسوفيا ليتابع عمله كمرب .

وفي هذا القصر تعرف نيقولا شوبان بفتاة شقراء من اسرة

بولونية عريقة في النبل ولكنها انهارت وافتقرت . وكانت هذه الفتاة الحالمة الطروب تدعى جوستين كريزانوفسكا ، وهي تتقن الفرنسية وتعزف على البيانو الحان جان جاك روسو وتغني الأغاني الشعبية الرقيقة. فأحبها نيقولا وأحبته في صمت ، ثم بنى بها وسكنا بيتاً صغيراً في قريةَ زيلازوفافولا الى جانب قصر المركيزة سكارابيك ، بين اكواخ الفلاحين ، وعلى مقربة من مطحنة عتيقة ما فتئت تدور دوراناً رتيباً منذ مئات السنين . فكانت له رفيقة مخلصة وزوجة وفية من اولئك الزوجات الوديعات والامهات المعذبات اللواتي وصف الاديب البولوني ميسكشيفيتش حياتهن في منازلهن التي لا يكدن يبارحنها ، وانما يعملن فيها كثيراً ، ويغزلن بحرارة ، ويغنين من اعماق قلوبهن ، وفي نظراتهن تلك الفتنة الخاصة التي يكحل بها تأملُ الحقول الرحيبة والآفاق المترامية ، عيون البولونيات من بنات المقاطعات الشرقية التي كانت جوستين واحدة منهن .

*

بدأ فردريك يتلقى مبادىء العلوم في سن السابعة ، على يد مربيه زيفني . كان ذلك في سنة ١٨١٧ والقسم الاكبر من اوربا يتنفس الصعداء لسقوط نابوليون ، وتطغى عليه موجة من التفاؤل وجدت سبيلها حتى الى قلب هذا المربي المحبب الى قلوب تلامذته لطرافته ورقته ورحابة نفسه وتعلقه الشديد بالحرية . ولكن ثمة صفة أخرى كانت تحبب شوبان بهذا المعلم الوديع الخلق ، هي حبه الموسيقى ومعرفته الواسعة بها . وهي صفة ما لبثت ان طغت على

كل صفة أخرى فيه ، اذ رأى في تلميذه الملهم اقبالاً عجيباً على الموسيقى وتذوقاً فذاً لها ، فنذر اكثر وقته لتعهد هـذه العبقرية الناشئة ، وحنا عليه حنو الأم على وليدها .

وكان ذلك الطفل الذي تتألق عينـاه بنور العبقرية ، ضعيف البنية شديد الهزال تساوره بين حين وآخر نوبات سوداوية عنيفة ، فيضيق بالحياة ويسخط على كل شيء . فكان زيفني يلقي في مثـل هذه الاوقات بالكتب جانباً ، ويبعد الطفل عن البيانو آلتـه الموسيقية الأثيرة عليه ، ويأخذ بيده الى الحقول المترامية قائـلاً له : « تعال نتعلم الآن من الطبيعة ، ونتلقى دروساً جديدة من زهرها وطيرها وغابها » ثم يسير به الى أحضان الطبيعة تحت اشعة الشمس حتى يجهده التعب فينام على كتف معلمه ، ثم يستفيق مرحاً نشيطاً يطارد حشرات الغابة او يخاطب طيورها بلسانها .

وكان زيفني يحب الموسيقي باخ حباً يقرب من العبادة ، فنشأ فردريك على غراره . ولكن سرعان ما بدأ حب المعلم يتحول الى هذا الطفل الذي كان يدهشه بتقـدمه السريع فيقف مرة مأخوذاً بعزفه البارع ومرونة يديه ، ويهرع مرة اخرى الى تسجيل الانغام التي يرتجلها لاهياً عابثاً .

ولم يمض وقت قصير حتى صارت شهرة النابغة الصغـير حديث المجالس، واخذ الذين سمعوه يصرحون بانه ، رغم حداثته ، موسيقي كبير . وبأن الحانه المرتجلة التي سجلها زيفني لا تقل قيمة عن الحان المؤلفين المعروفين .

وفي الواقع ان شوبان الطفل كان يضع الحاناً للرقص تضاهي

الانغام التي تعزفها امه لزوجها او لضيوفها في الليـــالي الساهرة ، ويعزف انغاماً مرحة بارعة تذكـّر بالاغاني الشعبية التي كان يسمعها في قرية زيلازوفا فولا وهو بعدُ في مهده ، وهي القرية التي كانت مصدر الوحي لأكثر نتاجه ، وان صرخات الألم والفرح في مؤلفاته الاولى قد انتزعت كلها من قلوب ابنائها البسطاء ، فالغبطة القريرة الناعمة تذكر بحقول القمح المتموجة فيهـا واسراب القبّرات التي تحلّق فوقها ، كما ان نضال فلاحيها الكادحين في سبيل تحررهم من نير الأسياد والمستثمرين قد طبع تلك المؤلفات بما يشيع فيهـــا من غضب ثوري ودعوة حارة إلى الكفاح .

*

كانت فرسوفيا في ذلك العهد مدينة كبـــيرة ذات شوارع عريضة ولكن اكثرها غير معبد ولا ممهد ، وفيها الكنائس الفخمة والآثار الرائعة والقصور العظيمة ، ولكن أكثر منازلها ، ولا سيما البيوت المنتشرة في ضواحيهـــا ، خشبية صغيرة أشبه باكواخ الفلاحين . وكانت شوارعها تعجّ بأنمـــاط شتى من الناس ، فيهم الأسياد ذوو القبعات القديمة والاحذية الثمينة الصفراء ، والشبان المتأنقون الذين يرتدون الفراك ذا الأزرار النحاسية ويعتمرون بالقبعات العالية ، وأفراد الجيش ببزاتهم الحلقة المرقعـة ، وابناء الشعب الكادح بثيابهم المهلهلة المختلفة الأشكال والألوان .

وكثيراً ما كان الناس يحتشدون في ركن من هذه الشوارع ، حول فرقة الجيش الموسيقية ، او يقفون لمشاهدة فصيلة من الجنود القوزاق ، او ليتفرجوا على رقص القرود والدببـــة ، او لسماع

جوقة من الموسيقيين الاوكرانيين . فاذا ما لفّ الليل المدينة بوشاحه ، خلَت هذه الشوارع الا من مشوهي الحرب الذين قاتلوا قديماً في سرقسطه او في سان دومينيك ، والذين ينتشرون مع المساء في الساحات العامة ، في ايديهم مصابيحهم ، وفي افواههم غلايينهم ، ليستجدوا العابرين الى موهن من الليل .

وكان في استطاعة السائر اليقظ ، ان يتبين محبة البولوني للموسيقى ، من أصوات الآلات الموسيقية الكثيرة التي تتعالى من هنا أو من هناك في سكون الليل ، ومن كثرة الجوقات والمسارح ، والفرق الموسيقية ، وما تلاقيه الحفلات التي تعزف فيها الحان موزار وهايدن والاوبرات الايطالية من اقبال شديد .

ولم يكن نيقولا شوبان ليدع حفلة واحدة من هذه الحفلات الكثيرة تفوت ابنه فردريك ، وان كان هذا الفنان الصغير لم يجد في نفسه ، حتى ذلك الوقت ، من الميل الى سماع الالحان الشهيرة لكبار الموسيقيين ، بقدر ما يساوره من ميل شديد الى الالحان الشعبية التي كان يتمثلها ثم يعزفها الحاناً جديدة رائعة .

وقد عزز استاذه زيفني هذا الميل الشديد في نفسه ، اذ كان ما يفتأ يقول له ناصحاً : « اذكر دائماً ، يا فردريك ، ان منبع الموسيقى الحية هو اغاني الشعب العامل » . وكانت نفس فردريك تتجاوب تجاوباً فريداً مع العالم الذي يحيط به ، فوجدت تلك النصيحة سبيلها اللاحب الى قلبه ، ثم وجدت في نتاجه تعبيرها الفذ .

عبقرية مبكرة

●

كتبت احدى سيدات فرسوفيا في مطلع يومياتها لسنة ١٨١٨: « دعتني السيدة غابروفسكا هذا المساء إلى منزلها . وكان هناك عدد كبير من الزوار . وقد عزف شوبان الصغير على البيانو . انه طفل في الثامنة من عمره ولكنه موزار جديد كما يقول العارفون »

والحق ان الصحف قد تحدثت منذ ذلك التاريخ عن « بولونيز وضعه للبيانو فردريك شوبان البالغ من العمر ثماني سنوات » وسمت هذا الطفل « موزار الجديد » وأثنت عليه ثناء كبيراً وتنبأت له بمستقبل عظيم .

وقد وضع فردريك في تلك السنة نشيداً عسكرياً ، وعزف في حفلة موسيقية خيرية . ولما دهشت امه للنجاح الذي أصابه في هذه الحفلة ، وسألته ، وهو على ركبتيها ، ما الذي اعجب به الجمهور اكثر من غيره ، همس في اذنها : « هل تدرين يا أماه ؟ لقد كان الجمهور بأسره ينظر باعجاب إلى عنق قميصي البيضاء ... » فالموسيقى وانسجام الانغام وارتجال الألحان ، كانت تبدو لذلك الطفل أشياء طبيعية لأنها تصدر عن كيانه وتفيض من روحه ، ولكن الثياب الجميلة الأنيقة كانت تدهشه وتفتنه ، إذ تجلى فيه منذ ذلك الحين ميل

قوي الى الكياسة والأناقة وحب الظهور ، وهو ميل ورثه عن ابيه .

وبينما كان شوبان الصغير دائباً على دراسة الفن الموسيقي في منزله على يد استاذه زيفني ، كانت فرسوفيا باسرها تتحدث عن المواهب الفريدة التي يتمتع بها ، حتى ان المغنية الشهيرة انجيليكا كاتالاني ، لما مرت بالعاصمة البولونية حرصت على سماعه ، ولم تملك نفسها عن الاعجاب به والثناء عليه ، وأهدته ساعة ذهبية . ولما سمعته الاميرة تشيتفير تنسكا ذات الذوق المرهف والجمال الخارق ، والامير انطوان رادزيويل الذي وضع هو نفسه بعض الالحان الموفقة ، لم يكتما دهشتهما لما يبدو في عزفه من عاطفة جياشة وما تزخر به الحانه من شاعرية متوثبة .

واراد الغراندوق قسطنطين ان يسمعه فأرسل اليه عربته لتقله إلى قصره ، فابتهج الحاضرون من اصدقاء الاسرة لهذه الدعوة ، ولكن عميدها نيقولا شوبان لم يبتهج لها كثيراً ، لأنه لم يجد ، وهو ذلك الثائر القديم الذي كافح في سبيل حرية بولونيا ، ان من الشرف لهذا الطفل البولوني الموهوب ان يعزف في حضرة ممثل القيصر ، فقال شوبان : « دعني اعزف امامه يا أبتاه ، كي يعرف ان لنا نحن البولونيين ثقافتنا أيضاً . لسوف أعزف له موسيقى بولونية من وضعي الخاص تسمعه صوت شعبنا الثائر فتجعله يحتدم غضباً ! »

ولكن الغراندوق لم يغضب لموسيقى فردريك ، بل ان الاميرة لوفيس قد اكتشفت ان خير علاج لما يعتري زوجها الغراندوق من

نوبات عصبية ، هو موسيقى البولوني الصغير ، فجعلت تدعوه إلى القصر كلما ساورت الوصي احدى هذه النوبات ، فيشفيه من المه أو غضبه .. وفي ذات يوم ذهلت عينا الصبي وجمدت أصابعه وهو يصغي إلى نغمة تصدح في نفسه يريد ان يسكبها في جملة موسيقية كما يضع الشاعر في بيت أو قصيدة نزوة من نزوات قلبه ، فسأله الغراندوق : « مالك تحدق في السقف أيها الولد ؟ أثمة علامات موسيقية تستطيع قراءتها ؟ » فانتبه الطفل من ذهوله وعاد الى عزفه ، ولكن بدا عليه الالم الشديد لانتزاعه من غمرة الوحي التي كان مستسلماً اليها . ولم يكن الطفل النابغة ليعرف حتى ذلك الوقت مصدر فنه ووحيه . وكل ما كان يعرفه من هذا الأمر ، انه يعزف مدفوعاً بالتعبير ، بالألحان ، عن خلجات نفسه ، وعن افراحه الصبيانية وأشواقه البريئة ، في اطار رائع من التوافق بين الاصوات والانسجام بين الالحان المختلفة .

وكان أبوه دائباً على تقوية مواهبه ، وحثّه على طلب الأجمل والأكمل في العزف والتلحين ، كما كان له من افراد أسرته جميعاً جمهور من محبيه ومشجعيه والمعجبين به ، وفي طليعتهم اخواته الثلاث : كبراهنّ لويز وهي غادة سمراء تشبهه خَلقاً وخُلقاً وتحوطه برعايتها وعنايتها ، وايزابيل الرومانتية الوديعة التي تشبه امها كثيراً ، واميلي الصغرى المفرطة في الاناقة والرقة والتي تنظم الشعر احياناً .

وفي مساء يوم الخميس من كل اسبوع ، كانت اسرة شوبان تستقبل عدداً من اصدقائها جلهم من رجال الفكر ، في طليعتهم

البروفسور لاند مدير المدرسة الثانوية في فرسوفيا ، والعالم جاروسكي ، والرياضي كولبيرج ، والشاعر برودزفسكي ، والرسام برودوفسكي ، فتعزف السيدة شوبان على البيانو ، وتراقص ايزابيل ولويز بعض الشبان ، ويصغي فردريك الى احاديث اولئك المفكرين او يقلد حركاتهم بما اعطي من قوة الملاحظة او يرسم لهم رسوماً كاريكاتورية .

في ذلك الجو الوادع المشجع ، كانت مواهب الطفل تنمو بسرعة عظيمة ، وتتكون له ، الى جانب ميوله الموسيقية ، نواة شخصية فذة : شخصية شاعر مرهف الحس ومفكر بعيد الغور .

*

ولما أيفع فردريك ودخل المدرسة ، أدهش معلميه بحدّة ذكائه وسرعة فهمه ، ولكنه اعياهم بكسله وتهربه من الدراسة ، ودأبه مع طائفة من زملائه ، على التغيب عن حضور الدروس ، مفضّلين الانطلاق في البساتين الغناء والحقول الواسعة ، أو العودة الى المنزل حيث يرقصون ويمثلون ، ويتراكضون ويتنادرون ، او يروي لهم فردريك بمساعدة البيانو قصصاً غريبة عن مغامرات الاشقياء ومخاوف النساء ونوادر المسافرين وحكايات الجن .

ومبعث هذا ان شبان ذلك الزمان ، وفي مقدمتهم شوبان ورفاقه ، كانت تزخر في نفوسهم عاطفة وطنية عارمة ، وكانوا يشعرون في المدينة وفي المدرسة بوطأة المستعمر وبظله الخانق البغيض ، ولا يحسون انهم يستنشقون نسمات الحرية الا بين جدران منازلهم ، والا في أحضان الطبيعة وتحت سمائها المشرقة ، وفي بيوت الفلاحين وجماهير الكادحين ، حيث لا أثر للمستعمر العاتي او

الحاكم المستبد .

وكان نيقولا شوبان يسكن قصراً قديماً يؤجر بعض غرفه للطلاب من ابناء الارياف ، فنشأت بينهم وبين فردريك صداقة وثيقة ، ولا سيما بينه وبين تيتوس فوشيوفسكي ، وجان ماتوشنسكي والاخوان فودشنسكي . وكان الفنان الصغير يزورهم في قراهم ويستضيفهم في فصل الصيف .

وكان احب شيء الى قلبه زيارة صديقه دومينيك تشيفانوفسكي في ناحية زافاني، حيث يقضي الايام الطويلة في حرية وادعة ، هائماً في الحقول والغابات . مصغياً الى نقيق الضفادع ونباح الكلاب ، أو الى صرير عربة على الرمل ، أو صهيل الخيل عند الغروب . على انه لا يلبث ان يرى ان هذه الحرية التي طالما تاق اليها وهو على مقاعد الدراسة ، ليست إلا وهماً مخادعاً ينهك الروح ، فيمضي الى اوساط الفلاحين يسمع غناءهم ويشهد رقصهم ، ويتبادل معهم شتى الاحاديث ، لاعتقاده بان حكمة الشعب البسيطة المتواضعة هي خير ما ينقذ النفس الحائرة المعذبة من آلامها واوهامها .

كانت هذه الاحاسيس تخامر فردريك وهو ما يزال في الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة من عمره ، يتابع دروسه على مقاعد المدرسة الثانوية بينما يملأ اسمه مدينة فرسوفيا . وفي سنة ١٨٢٥ عزف الفتى النابغة امام الكسندر الاول لما قدم الى العاصمة البولونية لحضور افتتاح المجلس البولوني ، فاعجب به القيصر واهداه خاتماً تتألق فيه حجارة من الماس . ومنذ هذا الحدث العظيم في حياة الفتى ، اصبحت ربات القصور وسيدات الطبقة المترفة ، يتسابقن في دعوته الى

الحفلات الساهرة الأنيقة التي كن يتنافسن في اقامتها . وكان اذا ما دنا من البيانو ساد السكون ، واطفئت الشموع ، ورانت في العتمة ظلال الحلم والشعر والشوق ، وانكبّ الموسيقي على آلته يناجيها ويرسل مع انغامها الكئيبة خلجات قلبه وروحه .

ذلك ان شوبان قد اعترته في تلك السن المبكرة ، كآبة حامتة مبعثها حساسية مفرقة وسوداوية مريضة ، فكانت تؤلمه أقل بادرة وتجرحه أصغر كلمة ، فينطوي على ذاته ويلوذ بالصمت ، ولا يعبر عما يخالجه من فرح أو حزن إلا باللحن . وقد لازمته هــذه السمة طول حياته ، فلم يستطع أحد ان يسبر قلبه إلا من خلال الانغام التي وضعها .

سن الشباب

•

في صيف سنة ١٨٢٧ اتمّ فردريك دروسه الثانوية ، واصبح في وسعه الانصراف الى الموسيقى وحدها دون ان يستشعر ضيقاً او يخشى تأنيباً . وقد قضى ذلك الفصل في قرية رينيرتش مستجماً مع امه . ولما عاد في الخريف الى المدينـــة ، التحق بمعهد فرسوفيا الموسيقي الذي كان يتمتع بشهرة واسعة تحت ادارة جوزيف ايلسنر الذي وضع عدة اوبرات ولحن كثيراً من الاغاني ، ولم تكن قد لحقت بالمعهد تلك الاهانة التي وجهها اليه القيصر اذ حوله الى مستودع من مستودعات الجيش .

وكان ايلسنر يعرف فردريك منذ سنوات عديدة ، فهو صديق لأسرة شوبان وقد تتبع تطور مواهبه منذ تفتحها باهتمام وتقدير كبيرين ، وما كاد يقرأ آثاره الموسيقية الأولى حتى أيقن ان وراءها عبقرية كامنة لن تبطىء بالظهور . فلما التحق بمعهده خصه بعنايته وحرص على تقوية اصالته ، فلم يرهقه بالقيود المدرسية ولم يفرض عليـــه دروسه فرضاً ، واقتصر معه على تمثيل دور المستشار الرفيق النصوح اليقظ ، المستعدّ لمساعدة تلميذه في عمله ، راغباً قبل كل شيء في ايقاظ ملكة الابداع وتقويتها في نفسه . وقد قال مدرسو المعهد يوماً :

« ان فردريك يحتقر القواعد المرسومة ويرفض اتباعها » ، فصرخ بهم غاضباً : « دعوا هـــذا الفتى في سلام ، فهو لا يسلك الدروب المطروقة لأن له موهبة خارقة تهديه، ولا يتبع المنهاج لأن له منهاجه الخاص ، وانه ليتمتع باصالة لم تتوافر لأحد بقدر ما توافرت له » .

وقد استطاع ايلسنر حقـــاً ، أن يكون أباً لتلك العبقرية الناشئة ، يتعهدها بالتوجيه الصحيح ، ويوحي الى صاحبها الانقطاع لها والاعتزاز بها وتقوية كل بدوة من بدواتها ، معلماً اياه أهميـــة العمل المتواصل الدائب . فنشأت بين التلميذ واستاذه ، صلة وثيقة من العطف والحنو والحب الأبوي .

ومر عهد انقطع فيه الفتى للفن وللدراسة الفنية. وكان الطلاب يدرسون على ايلسنر المؤلفات الكلاسيكية ، وينقدون المؤلفات الجديدة . كما كان فردريك يتابع الحفلات الموسيقية التي تقام في فرسوفيا،وقد اعجب اعجاباخاصابموزار،واحب الموسيقيين الايطاليين كثيراً . وكان هوميل وفيلد يبعثانه على التفكير الحالم، بينما تبعثه المآسي الفرنسية على التفكير العميق.وحينما مرت ماري زيمانوفسكا ، العازفة الشهيرة على البيانو وصديقة غوت ، بفرسوفيا ، وعزفت فيها ، كان فردريك شوبان في الصف الاول من صفوف المستمعين.

ولكن الشعب البولوني ظل مصـدر وحيه الأساسي ، اذ كان يذكر دائما قول استاذه زيفني: « ان منبع الموسيقى الحية هو اغاني الشعب العامل » . وقد تحولت هذه الكلمة لديه الى عقيدة راسخة ، واصبحت أساس فلسفته الموسيقية ، فكان يقول بدوره : « ان الحاني الشخصية وثيقة الصلة بالأغاني الشعبية » .

وذات يوم غادر المعهـــد مع رفيقه فونتانا ، وانطلقا الى قرية قريبة من فرسوفيا، وكلما التقيا طفلاً من اطفالها البائسين المشردين سأله فردريك : « هل تحسن العزف ؟ » فان اجاب بالايجاب سأله : « على اية آلة تعزف ؟ » فيجيب الاطفــال : على التيمبانون او المزمار اوالفيفر او الكمنجة او على آلات اخرى اندثرت اوكادت تندثر . ثم اخرج من جيبه كيساً مملوءاً بالنقود التي ظل يجمعها منذ شهور عديدة ، وقال لهم : « احضروا آلاتكم الى هنا واعزفوا لنا، ندفع لكم أجراً على ذلك » . فلما أحضر كل من الاطفـــال آلته الموسيقية ، ألف فردريك منهم جوقة فريدة ، وطلب منهم ان يعزفوا الحان المازوركا والكراكوفين، والكوجافياك التي ناغتهم بها امهاتهم ، او سمعوهـا في الحفلات والمراقص ، او تعلموهـا من افواه الرعـاة . ولبث فردريك شهراً او بعض شهر ، وهو يوافي فرقته هذه كل يوم الى مشارف القرية ، فيلاقيه أفرادها بالتصفيق والتهليل ، ثم يبدأون العزف ، وهو يدربهم ويهذب عزفهم وينسق انغامهم ، حتى اذا ما تمّ الانسجام بينهم ، ووثق من قدرتهم على العزف في محفل كبير، حشرهم جميعاً في عربة وذهب بهم الى المدينة وهم في اقصى الغبطة والدهشة .

وكان المعهد الموسيقي يقيم في ذلك اليوم حفلته التقليـــدية التي يختتم بها سنته الدراسية ، وقد بدأت الحفلة وجاء دور شوبان ليصعد الى المسرح ويسمع الحاضرين بعض الحانه ، والمدير ايلسنر في حيرة من امر الفتى وقلق عليه ، يخشى ان تكون قـد ساورته احدى نوباته السوداوية فتمرّض لسوء أو ألمّ به مكروه ، والجمهور

ينتظر وقد سئم الانتظار ، وأسرة شوبان تجيل نظرات متسائلة في المدير تارة وفي ارجاء القاعة تارة وفي المسرح تارة اخرى ... واذا فردريك يـــدخل المسرح فجأة ، ترافقه تلك الجوقـــة العجيبة من الاطفال البائسين ذوي الأسمال الخلقة البالية ، وفي يد كل منهم آلة موسيقية لا عهد لأبناء فرسوفيا بها إلا في الحكايات التي سمعوها من جدّاتهم عن العهود الغوابر !

ثم يقف فردريك من تلك الجوقة موقف الرئيس ، ويشير اليها فتبدأ بالعزف بين تساؤل الجمهور ودهشته وتبرمه .. ومدير المعهد اكثر تساؤلاً ودهشة وتبرماً..ولكن الانغام ما تلبث ان تصدح شجية رائعة ، فتملأ القاعة ، وتتغلغل الى قلوب المستمعين، وتصعد وتصعد حتى تكاد تتصل بالسماء . ثم تتوقف الجوقـة عن العزف ، وتجري أصابع فردريك على البيانو بانغام من اللحن نفسه ولكنها أنغام جديدة فيها أقباس من روح شوبان وشرارات من قلبـه ، وفيها ألوان شتى من غناء الطير وخرير الماء وزرقة السماء وعصف الريح وعمل الزارعين في الحقـل والحاصدين تحت الشمس ، وأنامل فردريك تداعب اصابع البيانو ، تلامسها تارة برفق ، وتضغط عليها تارة بقوة وثورة ، والفتى المتـــألق العينين ، المشرق الوجـه ، مستسلم الى أجنحـة الوحي ، يعزف ويعزف ، وهو لا يدري انه يفتح ابواباً جديدة الى السعادة ، مؤلفاً لحن الشعب العامل والوطن المناضل ، محطماً كل ما تعارف عليه اساتذة الموسيقى من حـدود وقواعد ، منتزعاً من قلبه الفرد الموسيقى التي تضجّ في قـــلوب الملايـــين .

فاذا ما توقف شوبان فجأة عن العزف ، جمد الناس في أماكنهم وساد القاعة صمت خاشع لم يقطعه إلا صوت يهتف بحرارة : « يا له من عبقري ! » وينظر الناس فاذا الهاتف المتحمس هو جوزيف ايلسنر مدير المعهد .

*

في سنة ١٨٢٨ توفيت اميلي اخت فردريك الصغرى ، التي كانت تشبهه كثيراً برقتها وخلقها ومزاجها ، والتي طالما سكن اليها فبثها همومه وحدثها عن مطامحه الكبيرة . فحزن لموتها حزناً شديداً ، وأضرّ الحزن بصحته ، حتى رأى أبواه ان يرسلاه الى برلين ترويحاً لنفسه مع الدكتور جاروسكي الذي كان مدعواً الى هناك لحضور مؤتمر لعلماء النبات . فسافرا في شهر ايلول من تلك السنة ، على طريق تطّرد على جانبيها البساتين وتظللها الغابات .

وقد اغتبط فردريك بهذه الرحلة ، وكان لجمال الطبيعة وأغاني الرعاة في الحقول الرحبة التي مروا بها أثر كبير في نفسه . الا ان أمراً آخر أثر في فردريك خلال هذه الرحلة وبعثه على التفكير العميق ، هو اللغة البولونية الصافية التي ظلت حية في هذا القسم من بلاده ، رغم ان الألمان قد انتزعوه من بولونيا والحقوه ببلادهم ووطدوا حكمهم فيه .

لقد سره ذلك وأثاره في آن واحد ، فطفق يفكر في مصير وطنه ، شأن كل وطني يشارف عاصمة اجنبية تسيطر حكومتها على بلاده ، او على قسم منها . وقال للدكتور جاروسكي وهما في بعض الطريق : « ان بولونيا يجب ان تتحرر ، وخير سبيل إلى ذلك ان

يتساوى ابناؤها في الحقوق سواء أكانوا أسياداً أم فلاحين أم عمالاً في المدن ، كي يشعروا شعوراً واحداً متماثلاً بتبعاتهم نحو وطنهم » فوافق الدكتور على رأي فردريك وقال له : « يبـــدو انك قرأت ما اذاعه كوسيوتشكو في كراكوفيا سنة ١٧٩٤ » فأجاب الفتى : « لقد قرأت ذلك طبعاً ، واني لأرى صحته واؤمن بضرورته ، واعجب بالرجل كثيراً من اجل ذلك ، وفي اعتقادي انه لو سبق مولده بعشرين سنة لمـــا كانت بولونيا نهباً موزعاً بين الروس والألمان » .

فابتسم جاروسكي لحماسة فردريك وقال : « لما قام كوسيوتشكو بثورته كان أبوك في سن الخامسة والعشرين ، فالتحق بالجيش الوطني الذي تألف سنة ١٧٩٤ شأن الكثيرين من الوطنيين الصادقين ، ولكن جيش الثورة لم يستطع الثبات طويلاً في وجه المستعمرين . » فقال شوبان : « اني أعرف ذلك ، ولطالما حدثني ابي عنه ، ولكني اعتقد بان اخفاق الثورة يرجع إلى قلة انصارها والمتطوعين فيها . ولا تنس ان اولئك المتطوعـــين لم يكن لديهم من الاسلحة الا المناجل والمعاول . واؤكد لك ان الأسياد هم الذين خانوا وطننا يومذاك ، اذ باعوا انفسهم من امبراطور النمسا المتعجرف وقيصر روسيا المجنون » .

فانتقل الدكتور بانظاره من محدثه الى حقل افيح بدا الى جانب الطريق ، وكأنه يقول لفردريك : كفاك حديثاً في هذا الموضوع ! بيد ان الفتى غضب لذلك وقال : « لو ان بولونيـا حرة الآن ، لما اضطررت الى مبارحـــة وطنك لحضور مؤتمر لعلماء النبات ، بل

لانعقد هذا المؤتمر في فرسوفيا نفسها » فقال الدكتور جاروسكي حينئذ بصوت حازم : « كفى يا فردريك ، فنحن الآن في منطقة برلين ! » فالتزم الفنان الصمت ، وقد اشجاه ان يحرم البولونيون حتى حق التعبير عن نزعاتهم الوطنية، بينما كان الدكتور جاروسكي مغتبطاً كل الغبطة للعاطفة الوطنية الواعية التي لمسها في الفنان الموهوب .

وقد اتاحت له زيارة برلين التعرف إلى عدد من العلماء الألمان من زملاء جاروسكي ، فأولع بتقصي عيوبهم وتقليد حركاتهم شأنه دائماً في ساعات مرحه . كما اتاحت له هذه الزيارة سماع عدد وافر من السمفونيات والمؤلفات الموسيقية الشهيرة. واتفق ان وقفت العربة بهما في مركز للبريد ، في احـدى القرى المتاخمة للحـدود البولونية ، لما انتهجا بعد شهر طريق العودة الى وطنهما ، فشاهد شوبان بيانو في الحجرة الملاصقة لحجرة الانتظار، فدلف اليها وانشأ يعزف بعض الحانه المستمدة من الفولكلور البولونية.. فتعالى النغم الهادر واجتاح نفوس الحاضرين ، فجمدوا في اماكنهم مأخوذين ، ثم تقدموا نحوه لما انتهى من عزفه يحيونه باعجاب كبير ، وقال له أحـدهم والدمع يطفر من عينيه : « آه يا سيدي ، لوان موزار استمع اليك لقبل يديك وهتف بك : أحسنت ! أما انا فلست الا رجلاً من عامة الناس ، وليس لي ان اطمح الى مثل هذا الشرف العظيم.. » فحيا شوبان جمهور المعجبين به من المسافرين والقرويين، وحدثهم عن موسيقاه قائلاً انها وليدة الأرض البولونية وأغاني شعبها العامل، وتلفت حواليه قائلاً بفخر :« وقد كانت هذه القرية بولونية

ايضاً منذ أمد قصير ، كما أن برلين نفسها قد بناها البولونيون ! »

وعلى أثر انتهاء فردريك من دراسته في المعهد الموسيقي ، رحل الى فيينا وثلاثة من رفاقه ، مزوداً بما ادخرته أسرته من مال وبطائفة من كتب التوصية الى كبار الموسيقيين . وقد شاق هؤلاء الشبان ان يزوروا المدينة التي انجبت هايدن وموزار وبيتهوفن وشوبرت ، واتيح لهم ان يشاهدوا وهم في طريقهم اليها ، كراكوفيا عاصمة بولونيا القديمة ، وحصن دافل مقرّ الملوك البولونيين ، فازدادوا حماسة لوطنهم وعزماً على النضال في سبيل تحريره .

ثم بلغوا فيينا في احدى اماسي حزيران سنة ١٨٢٩ ، وقضوا على ضفاف الدانوب اربعة اشهر تعرف شوبان في خلالها الى بعض الموسيقيين والناشرين ، وحضر عدداً من الاوبرات والحفلات الموسيقية ، وعزف لأول مرة في مسرح عظيم هو مسرح الاوبرا في فيينا ، بعد ان تنازل لمديره عن نصيبه من الربح ، كما عزف في عدة مسارح ومجالس أخرى في فيينا وبراغ ودرسد ، فنال من النجاح فوق ما يتأمل ، وترك وراءه صدى يفوح كالطيب .

وشهدت السنوات التي عقبت تلك الرحلة ، ازدهار عبقرية شوبان ، اذ أخذت الموسيقى تتدفق من نفسه كموجة فياضة ، فأنتج الحاناً عديدة من البولونيز والروندو والسونات والفارياسيون . وعبثاً يحاول المرء ان يتحرى في كل من هذه الألحان عن الفكرة الرئيسية التي اوحته ، فان الحانه ، بخلاف مؤلفات الموسيقيين الكبار الآخرين التي تعتمد على البناء الفكري وقوة العاطفة مجتمعين ، لم تكن في مجموعها الا تتابعاً لانطباعات عفوية تبعثها

عواطفه المحمومة واحساساته المرهفة، وتأخذ شكلها في منطق تسلسلها، دون ان يعنى مؤلفها الا بشيء واحد هو اثارة مشاعره واستلهام ضميره . وقد قنع بهذا فلم يعن بالفنون الموسيقية الكبرى كالاوبرا والسمفونية ، واقتصر على التعبير عن احاسيسه على البيانو وحدها، حتى غدا أكثر الرومانتيين رومانتية، اي اكثرهم تأثراً بالانطباعات المختلفة واستسلاماً للالم والحنين، يتحدث قلبه اكثر مما يتحدث عقله، وتتحدث اعصابه اكثر مما يتحدث قلبه .

وان انغامه لتثير في الذهن طائفة من الخواطر، وتسجل صوراً شتى من سيرته في ذلك العهد ، من حياته العائلية بعذوبتها ودعتها، وسهراته الممتعة البريئة في أرقى المجالس وفي اشدها تواضعاً ، وحياة القرية البولونية بجمالها الرائع وشمسها المشرقة وعملها الدائب واغانيها الطروب، الى حياة وطنه المضطهد وشعبه المعذب، وقوافل المنفيين البولونيين الذين كانوا يمرون تحت نافذته بين حين وحين والأغلال في اعناقهم والقيود في أرجلهم ، وهم في طريقهم الى مدافنهم في مسالك سيبيريا وفي مخارم جبالها ، عقاباً لهم على كفاحهم في سبيل الحرية ، الى الاحاديث الوطنية التي كان يتبادلها وصديقه تيتوس فوجيشوفسكي في بلدة بوتيتشك تحت ظل شجرة صفصاف ، والقطعان تسرح امامهما في المراعي الخضراء وعلى ضفاف البحيرة الساجية، الى التأملات الشعرية التي كان يستغرق فيها امام نافذة منزله ، وهو ذاهل عن نفسه وعن صديقه تيتوس الذي يروي له في هالة من دخان غليونه احداث التاريخ وقصص الحياة ، الى الحانة التي كان يجتمع فيها باترابه من شبان العصر المتحمسين لوطنهم

يتناشدون قصائد ميتسكيفيتش شاعر بولونيا الاكبر وبودان زاليسكي شاعر السهوب الاوكرانية، الى الاجتماعات السرية التي كان يعقدها مع نفر من رفاقه للنضال في سبيل استقلال وطنهم وتحرير شعبهم من نير الاستعمار الروسي والاقطاعيين البولونيين حلفائه واعوانه، والتي كان يحضرها في اكثر الاحيان بعض الاوكرانيين الثائرين والاشتراكيين الروس الذين يكافحون مثلهم لقلب الحكم القيصري الظالم، مرددين جميعا نداء ميتسكيفيتش «الى الشباب»:

لنتحد أيها الرفاق، أيها الشباب!
كل شيء لا قلب له هنا ولا روح،
ليس هنا الا الأشباح.
فأعطني أجنحة الشباب،
كي أغادر بها هذه الارض الموات،
واذهب الى بلاد السراب،
حيث يخلق الايمان المعجزات.
لنتحد ايها الرفاق، ايها الشباب!

الحب

●

بدأ فردريك شوبان يكتشف ذاته ، وطفقت الألحان التي ما فتئت تتجمع في نفسه منذ طفولته ، تنبجس منها وتفيض. وكان قد اتقن الفن الموسيقي واحاط بقواعده واصوله ، ولكنه كان يتمتع فوق ذلك بعبقرية هذا الفن. وقد اطلع روبرت شومان على قطعة له غفل من التوقيـــع ، فهتف: «هذا عبقري جديد!» وقال عنه هـــذا الفنان الكبير بعد سنوات: «ما الذي أوصل شوبان الى المجـد الذي أحرزه؟ ولماذا تستحوذ موسيقاه على جمهور المستمعين وتؤثر فيه اكثر مما تفعل الحان ايّ موسيقي آخر؟ ذلك لان شوبان يحب الشعب ، ولأن الشعب لديه مصدر الحياة والفن. ان موسيقى شوبان لهي بولونيا ، وهي تنقل المستمعين الى هذه البلاد رغم اتشاحها بثياب الحداد. ولو عـلم القيصر القاهر ، ايّ سلاح خطر تؤلفه مازوركا لشوبان ، لحرّم عزفها حالاً. فان الحان هذا العبقري انما هي مدافع تختفي طيّ الورود.»

وكأن القدر أراد أن يحقق نبوءة شومان ، ولكنه حققها على يد طاغية آخر ، اذ منع هتلر ، بعد مائة وعشر

سنوات ، أن تعزف موسيقى شوبان في كل بلد بسط عليه حكمه الجائر ، كما حاول القضاء على كثير من كنوز الفكر الخالدة .

وقد كتب عنه ايلسنر بعد أن تدرب عليه ثلاث سنوات « ان شوبان يعبر عن صرخة الضمير الحيّ » . والحق ان مزية هذا الفنان العظيم هي تعبيره الرائع بالنبرات الموسيقية عن نبضات القلب ، وقدرته الخارقة على ترجمة نزعات الفكر وخلجات النفس الى لغة النغم واللحن . وقد سجل وهو في تلك السن ، سن العشرين ، اروع الصور الموسيقية التي تبعث على التأمل والحلم .

في هذه الحقبة من حياته ، بدأ شوبان الرجل يسير نحو آفاق جديدة ، وظل شوبان الفنان محافظاً على اشكال فنه الخاصة ينميها ويقويها . وقد حل محل التدفق العفوي الذي عهده في نفسه أيام حداثته ، الفيض العاطفي الذي ترافقه الرغبة في الابداع والحماسة له . ولكنه كان ما يزال بحاجة الى الحب ، الحب العظيم ، وليس الى ذلك الحب الذي يتلف قلب الشاعر لأنه مجرد حكاية مبتذلة بين كائنين عاديين ... فاخذت تظلل الحانه سحابة عاشقة ، ويعصف فيها الانتظار اليائس العنيف .

لقد كانت تعمر نفسه قوة الحياة والخَلق ، ولكن الحب الذي عرفه حتى ذلك الحين لم يوفر له الفرح والألم الذي يحفز الشعور ويترع القلب ، فاضطرمت حياته بالشوق

الصارخ ، وأخذت تساوره حاجة ملحّة إلى العزلة كي يودع أنغامه شكواه في السكون الشامل والصمت العميق . على انه ما كان ليؤلف قطعة أو يضع لحناً ، حتى يضج فيه الحنين الى نفس اخرى تنبض الى جانبه ، وتتجاوب معه ، وتستوعب انغامه ، والى يد رفيقة تأخذ بيده أو تداعب شعره ، فتبدّد أوهامه الغريبة وتبعد عنه شعوره بالوحدة .

كانت نساء فرسوفيا يحلمن بشوبان ، وهـذا الشاب القلق يحلم بهنّ جميعاً ولا يعرف السبيل الى قلب واحـــدة منهن أو لا يريد ان يعرفه . وخيل اليه أخيراً انه وجد ضالته في فتاة تدعى كونستانس كلادكوفسكا ذات عينـــين سوداوين حييتين وصوت جميل حار . بيد انه ظل وقتاً طويلاً يتجنب التعرف بها ، لأنها كانت تجسد لديه مثلاً أعـــلى فهو يتهيب هذا المثل ، أو يخشى ان يفقده اذا هو عرفه عن كثب ، وكان اذا التقاها تبعها عن بعد أو هرب منها ، شأن فرتر مع الفتاة التي أحبها .

ثم تعرف بها أخيراً فاخذ يزورها في بيتها ، وألف لها بعض ألحانه وأقام في فرسوفيا اولى حفلاته الكبرى ، مدفوعاً الى ذلك قبل أيّ شيء آخر ، برغبته في ان تحضر ، هي ، تلك الحفلة . وقد عزف فردريك والجوقة التي رافقته ، موسيقى سمفونية وقطعاً غنائية ، ثم عزف بمفرده على البيانو فصفقت له طويلا. ولما ألحّ عليه الجمهور بعد ايام في اقامة حفـلة اخرى ، لم يتردد في اجابة الطلب ، كي يرى تينك اليدين الناعمتين تصفقان

له مرة اخرى .

ولكن كونستانس لم تعط الفنان من نفسها بقدر ما أعطاها . ولم تر حرجاً في معاشرة شبان آخرين ممن يظهرون لها الحب ويطمعون بالزواج منها . فأغضب ذلك شوبان ، وحاول نسيانها بالانصراف الى الموسيقى والاستسلام لها وحدها ، مكتفياً بان يكون نصيبه من تلك المغامرة شريطة زرقاء كانت تعقد بها شعرها ، وهبته اياها تذكاراً لتعارفهما .

على انه فيما كان يقيم حفلته الثالثة ، والحاضرون يصغون اليه باهتمام عظيم ، اقبلت كونستانس وهي ترتدي ثوباً ابيض ، وقد زينت شعرها بزهرة بيضاء ، وتألقت عيناها بنور السعادة ، وابتسمت له ابتسامة ساحرة أنسته فكرة نسيانها ، فجرت انامله على البيانو باغنية حلوة رائعة ، بينما صدحت في قلبه اغنية اخرى ملأته سعادة وغبطة « انها تحبني .. انها لا تستطيع الا ان تحبني ... »

ورافقها تلك الليلة الى بيتها ، فاستوى كل منهما الى مقعد في العربة صامتاً حالماً ، ثم قال لها وهما في بعض الطريق : « هل تقبلينني زوجاً لك يا كونستانس ؟ » فلم تجب ، ولم تبتسم ، ولم تتألق عيناها كما كان يتخيل ، بل انطفأ بريقهما ، وبدت عليهما الدهشة والخوف كأن الذي خاطبها شبح خارج من قبر . فأعاد فردريك عليها سؤاله في رجاء والحاح ، وهي غارقة في صمتها ودهشتها . فأعاد الفتى سؤاله

حانقاً وكأنه يردده للمرة الاخيرة : « هل تقبلينني زوجاً لك يا كونستانس ؟ » فانفجرت الفتاة باكية وقالت : « كلا ، لا استطيع » ثم هتفت بالسائق ان يقف ، ونزلت من العربة ، وصعدت عربة اخرى دون ان تنبس بكلمة . وشاهد شوبان هـذه العربة تنطلق بحلمه ثم لا تبطىء ان تختفي في جوف الليل كما اختفت كونستانس من حياته .

وقيل ان والدي الفتاة هما اللذان نصحاها ان ترفض طلب شوبان ، لفقره ومرضه ، فوافقت نصيحتهما من قلبهـا مكانا رحباً ، لتعلقها بمارف الحياة التي لا يستطيع الفنـان توفيرها لها .

وقـد تزوجت كونستانس بعد عامـين تاجراً غنياً يدعى جوزيف غرابوفسكي غمرهـا بالمـال الوفير والترف المفرط ، ولكنه لم يستطع ان يمتعها بقليل من السعادة التي تنشدها ، وأخذ النور الذي يتألق في عينيها الفاتنتين يخبو شيئاً فشيئاً حتى فقدت بصرها وهي في مقتبل شبابها . وكثيراً ما كانت تذكر وهي في محنتها ويأسها ، ذلـك الفنان الذي احبها ووهبها قلبه الكبير فرفضته بخفـة ورعونة ، مرددة اللحن الكئيب الذي طالما غنته له فأحبه وخفق له قلبه : وذرفت الدمع من اجلك ... »

●

ومـنذ عاد شوبان ، من فيينا ، مدينـة العطر والخمر والموسيقى ، بدأت تراوده فكرة الرحيل عن فرسوفيـا

والطواف في اوروبا ، وقد شجعه استاذاه زيفني وايلسنر واصدقاؤه المقربون على تحقيق هذه الفكرة . كان يشعر بان فرسوفيا قد استنفدت كل ما في طاقتها ان تعطيه اياه ، ويرى في السفر حاجة ضرورية لاكتساب جماهير جديدة ومشاعر جديدة . وكان المجد الذي طالعته تباشيره في فيينا يدعوه اليه ، ويهيب به لافتتاح العالم !

الا انه كان يشق عليه ان يغادر وطنه وهو في غمرة كفاحه من اجل الحرية ، وان يفارق اصحابه الاثيرين لديه تاركاً اياهم يقودون هذا الكفاح من دونه . ثم كان حبه لكونستانس فعزز فيه رغبة البقاء في بلاده وسافر الى قرية زيلازوفافولا حيث رأى النور لاول مرة ، فاستقبله كل انسان استقبال الأخ لأخيه ، ورأى في كل مكان ذكرى عزيزة عليه ، وأحس ان في كل شيء أثراً منه وان فيه من كل شيء أثراً باقياً على الايام ، فكيف ينتزع نفسه من هذه المغاني التي ألِفَها والِفَته ، ويهجر هؤلاء الناس الذين يبادلونه اصدق الحب ، ويغادر وطنه وهو على اهبة ثورة دامية في سبيل حريته ، ثم كيف يفترق عن كونستانس وقد وجد فيها مثله الاعلى ؟ !

ولكنه ما كاد يفارق كونستانس في تلك الليلة ذلك الفراق المؤلم ، حتى عقد عزمه على السفر ، ثم رآها بعد ايام عن بعد فقوي فيه عزمه هذا ، وكتب الى صديقه تيتوس الذي يريد مرافقته في رحلته : «شاهدت كونستانس امس وانا خارج

من الكنيسة . وقد تلاقت انظاري بانظارها لحظة واحدة ، فانطلقت في الشارع على غـير هدى . اني لأشعر في بعض الاحيان بأني مجنون جنوناً مخوفاً . وقد اعتزمت السفر في صباح السبت مهما حدث . لسوف أضع الحـاني في حقيبتي ، وشريطتها في روحي ، وروحـــي تحت ذراعي ، وانطلق الى الدنيا . »

وداعاً يا وطني !

●

لم تنم أسرة شوبان في تلك الليلة ، ليلة الوداع ، وانما ظلت تساهر ابنها الحبيب وتعدّ له أمتعته وتحزم حقائبه وكانت الأم لا تكف عن البكاء ، وقد خامرها شعور قويّ بانها تودع ولدها الوداع الأخير . أما الأب فلم يكن يجد لمخاوفها سبباً ، وهو واثق من ان ابنه بالغ في هذه الرحلة القمةَ التي ما فتيء يمهد له طريقها مذ كان في المهد صبياً . بينا كانت لودفيكا وايزابيل ، تحلمان باليوم الذي يعود فيه فردريك مكللاً بالمجـــد ، مثقلا بالهدايا الحسان من فيينـا ولندن وباريس .

وكان اصدقاء فردريك المقربون واستاذاه زيفني وايلسنر قـد اجتمعوا ذلك المساء في قرية زيلازوفافولا ، واقاموا له حفلة وداعية حارة اشتركت فيها جوقة المعهـــد الموسيقي واهالي القرية ، فعزفوا وغنوا وخطبوا جميعاً . وكان بعض الحاضرين يتساءلون : « متى يعـــود ؟ » فيجيبهم آخرون « عندما تتحرر بولونيا ! » فيتخايل الدمع لسماع هذه الكلمة في عيون النسـاء ، وتتّقد لها عيون الرجال ثورة وغضباً .

ثم دنا منه جانيك ماتوشنسكي فقـدم اليه إناء من الفضة أودع فيه رفاقه حفنة من تراب بولونيا ، وقال له : « هذه حفنة من تراب بلادك يا فردريك ، تراب الحقول التي حارب فيها أجدادك من اجل حرية وطنهم واستقلاله . وان هـذا التراب المجبول بدماء اولئك الابطال الذين قضوا في الحقب الغوابر ، لخليق بان يذكرك دائماً بوطنك بولونيا . فكن لها ابناً باراً ، وعد اليها عندما تناديك ، ولا تنس أبداً رفاقك الذين يحبونك » .

ففاض الدمع من عيني فردريك على شحوب وجهـــه ، وظل جامداً كتمثال ، لا يتحرك ولا يتكلم ، حتى اقبلت نحوه ماري فودزنسكي فقدمت اليه طاقة من الزهر ، واعادت اليه حبوره ومرحه بنضارتها وحلو حديثها ، حتى بدا عليـــه كأن نشيداً جـديداً يضج في فكره وقلبه ، فقال احـــد الحاضرين ممن كانوا يراقبونهما : « انها لم تعطه زهراً بل أعطته الهاماً ووحياً ! »

وفي صباح اليوم التالي ، وهو اليوم الأول من تشرين الثاني ، سافر فردريك وتيتوس الى الغرب ، تتنازعهـــما عوامل متضاربة من حلاوة الأمل ومرارة الذكرى . وقـد توقفا قليلا في براغ العاصمة ذات التاريخ الدامي ، ثم خلّفا نهر الايلب وراءهما ، واجتازا السهل الفسيح الذي يمتـــد من بعده ، فبلغا نهر الدانوب ، ودخلا مدينة فيينا .

وكان الخريف في اوجه ، والريح تعصف بشدة ، والمطر

يطل باستمرار ، والعاصمة المرحة العابثـــة كئيبة على غير عادتهـــا ، يسود ابناءهـــا قلق عاصف وتحفزٌ الى النضال والكفاح . . . فقد طمت من فرنسا ، على القارة الاوربية ، مرة أخرى ، الامواج الثائرة الـــتي تضرم الحماسة المشبوبة وتفجّر غضب الشعوب . . . كان ذلك في سنة ١٨٣٠ ، ولم يكن احد يدري أي لهيب سيشتعل في القارة . .

ولم يكن مع الصديقين المسافرين الا نزر يسير من المال ، الا ان فردريك كانت تجيش في نفسه آمال كبار ، وكان يؤكد لصديقه انهما لن يبلغا فيينا حتى يمتلىء جيباهما بالنقود ، لانه كان قد سلم الناشر هلسنجر بعض الحانه اثناء رحلتـه الاولى الى النمسا ، وهو يؤمل ان يشاطره الان ارباحها ويبيعه الحاناً اخرى . ولكن هلسنجر اخلف ظن فردريك اذ اعترف له بان الحانه قد طبعت وذاعت ، غير انه رفض ان يشاركه فيما عادت عليه من ربح ، مكتفياً بالسلفـة الهزيلة التي كان قد سلمـه اياها ابان تعاقدهما ، واراد ان يستولي على مؤلفاته الجديدة مقابل ثمن بخس ، شأنه في ذلك شأن اكثر الناشرين الذين كانوا يستبدون بالمؤلفين والملحنين الناشئين ويستغلونهم اسوأ استغلال .

وكانت حجة هلسنجر ان شوبان ما يزال مجهولا ، وبحسبه ان تنشر الان الحانه وتذيع في الناس ، ويجب ان يشكر للناشر فضله عليه اذ يجازف بماله فيضعه في خدمة مواهبـــه الناشئة ، وينتظر وقتاً طويلاً حتى يسترده ويربح منه . اما حجة

شوبان فهي ان جيوبه فارغة ، وهو يريد ان يأكل ليعيش ويستطيع الانتاج ، وهو بعدُ يسلم هلسنجر فيضاً من قلبه وجزءاً من روحه لن يلبثا حتى يصبحا بمثـــابة الخبز لدى الانسانية النيّرة ، فكيف لا يستحي المستثمر ان يدفع فيها ذلك الثمن البخس .

ويشتد الجدال بين الرجلين حتى يكاد ينتهي الى خصام ، ثم يغادر فردريك مكتب الناشر غاضبـــاً يائساً كما خرج بيتهوفن وفاغنر وبرليوز وكثيرون غـيرهم مئات المرات من مكاتب الناشرين غاضبـــين يائسين . ويبقى لدى هلسنجر لحن للفنان لم يحصل منه على اجازة نشره ، ويظـــل ذلك اللحن مودعاً في درجه خمسة عشر عاماً كاملة ، حتى اذا بلغ شوبان قمة مجده ، أرسله اليه ليجيز له نشره مقابل الشروط الـــتي يعينها بنفسه ، فيأبى ان يجيبه الى طلبه ويمزق اللحن غـــير آسف عليه .

ويظلم الأفق أمام عيني شوبان ، ويشعر لاول مرة بان طريقه شاقة وربما كانت خطرة ، وبأنه سيضطر ، ان كان جميع الناشرين على غرار هذا الرجل ، الى كثير من النضال حتى يتوافر له قوت يومه ، وبان الحاجة ستقضي عليه بالالتجاء الى اعطاء الدروس واقامة الحفلات والاستدانة من رفاقه ، وغير ذلك من الطرق التي كان يحسب ان في استطاعتـــه تخطيها دفعة واحدة .

وبينما فردريك ورفيقه يطوفان في شوارع فيينا ومغانيها ،

تتجاذبها امواج الهموم وغوارب الاحلام ، اذا بنبأ هائـــل ينتقل من فم الى فم . ان فرسوفيا قد ثارت ، وهرب الجيش الروسي والوصي قسطنطين ، وأعلنت بولونيا استقلالهـا ، وهي تخوض مع مستعمريها حرباً ضروساً مجهولة العاقبة ، والمواطنون البولونيون يقبلون من كل صوب للتطوع في جيشهم الوطني !

ويتقصى فردريك النبأ فيعرف ان طلاب المدرسة الحربية في فرسوفيا هم الذين اعلنوا الثورة عـلى القيصر في التاسع والعشرين من شهر تشرين الثاني ، فيسأل عن الفلاحـين وعن عامة الشعب فلا يجد لهم أثراً كبيراً في الانقلاب . فتساوره من جراء ذلك الهواجس ، ويقول لصاحبه : « انـ هناك ما يقلقني في هذه الثورة ، وهو صدورها عن طلاب المدرسة الحربية التي «يتربى» فيها اولاد الاسياد الاقطاعيين وليس ابناء فلاحي بولونيا . وهؤلاء الاولاد المترفون لن يلجأوا الى الفلاحـــين ويسلحوهم لانهم يخشون منهم على امتيازاتهم الاقطاعية ، ولا بد من ان تخفق ثورة لا تشترك فيها جماهير الشعب » . فيجيبه تيتوس : « انك لتفكر في الثورة الفرنسية ، وفي اعتقادي ان ما حدث حتى الان في بولونيا لا يعدو ان يكون البداية ، ولن يبطىء الفلاحون حتى يشتركوا في الثورة ، ولعلهم قد فعلوا ، فان جميع البولونيين الذين يحبون الحرية لا ينتظرون الا كلمة واحدة للانتفاض على المستعمرين الظالمين . »

قال فردريك : « ما أحسب أن هذه الثورة هي ثورتنـــا جميعاً ، وفي اعتقادي أن طلاب المدرسة الحربية الشغوفين

بالمغامرات ، انمـــا يريدون أن « يجربوا » مقدرتهم ويرضوا غرورهم ، وليست حرية بولونيا هي الشيء الذي يبتغون ، ولهذا تراهم يبطئون في دعوة الفلاحين الى حمل السلاح ، وربما لن يفعلوا ذلك أبداً . أنت تعلم يا تيتوس ان الفن الحقيقي هو الفن الذي ينبع من روح الوطن ، وأن روح الوطن انما هي شعبه ، ففي أعماق الشعب تكمن عبقرية الوطن وقوتـه الفعالة . خذوا بيد هذا الشعب الى ثورة صحيحة ، وأنا زعيم بانتصارها ، لان ابناء الشعب يحبون الحرية ويستميتون في سبيلها ، وليس ذلك شأن الاسياد المترفين . على أن هـذا لن يمنعني من القيام بواجبي نحو وطني ، وهـــا أنا عائد الى فرسوفيا منذ الآن للاشتراك في ثورتها والعمل على توجيهـا نحو غايتها الصحيحة . »

كان تيتوس ، وهو ذلك العملاق الذي تستطيع يده القوية امتشاق الحسام ، قد اعتزم العوده الى وطنه فوراً للانضمام الى صفوف الثائرين ، ولكنه ما كاد يعرف رغبة فردريك ، ذي الأنامل النسائية والصدر الضعيف ، في العودة معـــه ، حتى أخذ يقنعه بان مكانه هو الفنان الملهم ، ليس بين صفوف المقاتلين بل أمام آلته الموسيقية ، لأن كل لحن يكتبه قـد يعدل معركة بأسرها ، وحاجة بلاده الى الفكر المبدع اكثر من حاجته الى الأيدي التي تحمل السلاح ، وقال له : « لئن مت أنا في غمار الثورة فان هناك ألوفاً وملايين يستطيعون أن يحلوا محلي ، أما أنت فمن ذا الذي يحل مكانك ، ومـــا

الذي يعوّض على بولونيا خسارتهـــا فيك ان قضت عليك رصاصة طائشة ! »

ثم أخذ يحثه على مواصلة رحلته ، قائلا له : « لئن ذهبت الى باريس فستجد بيئة تفهمك وتقدرك ، فتذيع شهرتك ، وتجثو العاصمة الفرنسية لألحانك ، ويرهف لها العالم آذانـــه طرباً ، فيتساءل الناس : من هو شوبان ؟ فيقال لهم : إنه بولوني ، وان وطنه ليعاني هول الظلم وسوء العذاب في قبضة المستعمر ! فيخفق قلب الدنيا عطفاً على بلادك وشعبك ! »

وفيما فردريك مستغرق في نومه تلك الليلة ، عمد تيتوس الى حقيبته فحملها وخرج تحت جنح الليل ، تاركا لصديقـه الفنان رسالة ينبئه فيها برحيله ويدعوه الى مواصلة كفاحه في سبيل الفن الذي هو في الوقت نفسه كفاح في سبيل الوطن . فغضب فردريك لما قرأ الرسالة ، ولكنه لم يلبث ان فارقه غضبه اذ أدرك عجزه عن الكفاح الجسدي ، وعرف ان له مهمة اخرى تقضي ببقائه خارج المعركة شأن ميتسكيفيتش وسلوفاتشي لانهم ولدوا لكفاح آخر وخاضوا معارك اخرى ..

وقد اتسعت ثورة بولونيا ، وتبناها المجلس الشعبي في قرار اتخذه بتاريخ ٢١ كانون الثاني سنة ١٨٣١ ، فامتد لهيبها الى جميع ارجاء بولونيا الشرقية ، ولكن ما عتم ان وقع الأمر الذي تنبأ به شوبان فاخفقت ، اذ اختلف زعماء الانقلاب فيما بينهم ، واسقطوا من حسابهم جماهير الفلاحين ، فلم يسلموهم سلاحاً ولم يدعوهم الى قتال ، مخافة ان تتحول الثورة الوطنية الى

ثورة اجتماعية تذهب بالامتيازات الاقطاعية الجائرة ، فكان نصيبهم الاخفاق الذريع ، وسقطت فرسوفيا مرة اخرى في يد الجيش القيصري .

وكان شوبان قد تلقى من الشاعر فيتيفيتشي رسالة قيمة كان لهـــا اعظم الأثر في حياته قال له فيها : « ضع نصب عينيك دائماً القومية ، ثم القومية ، ومرة اخرى القومية . انها لكلمة فارغة تقريباً بالنسبة الى فنان عادي ، ولكن ليس بالنسبة الى موهبة كموهبتك . هناك لحن قومي كما ان هناك مناخاً قومياً . وان للجبال والغابات والبراري والأنهر صوتاً خاصاً داخلياً ، وان لم تستطع جميع النفوس سماعه . وكلما فكرت في ذلك يا عزيزي شوبان ، يراودني امـــل عذب بانك ستكون اول من يستطيع اغتراف كنوز اللحن السلافي ... فابحث عن الالحان الشعبية السلافية ، كما يبحث العالم عن المعادن والاحجار الكريمة في شعاب الجبال وأغوار الوديان . لقد قيل لي انك تضجر هناك ويفتر نشاطك ، ولا بدع في ذلك ، اذ ليس يستطيع بولوني ان يكون هادىء البال بينا تتقرر حيـــاة وطنه او موته . ولكن تذكر دائماً يا صديقي العزيز ، انك لم تذهب ليفتر نشاطك ، بل لتتقدم في فنك وتصبح عزاء ومجداً لاسرتك وبلادك » .

والواقع ان فردريك كان قد عرف اي نهج ستسلكه حياته بعد الآن ، واي مصير سينتهي اليه . فهو منفي باختياره دون ان يشترك في قتال ، وسيكون هدف هذا المنفي ان

يعبر باللحن المثير عن حنينه الى البيت العائلي وارض الوطن وعشرة الرفاق ولوعة الفراق . وانه ليعرف اكثر من اي شخص آخر سحر الارض البولونية ونداءها الذي لا يقاوم . وهكذا أخذ يعرض ذكريات صباه واحلام شبابه وآلام حاضره ، ويعبر عنها باللحن الثائر والنغم الجميل ، واذا موسيقاه قطاف جنيّ من هذه الاصوات الداخلية التي تهتف في نفسه والعوامل المتضاربة التي تتصارع فيها ، لكنه يرجع دائما صدى الاغاني الشعبية السلافية التي ناغته بها امه في طفولته وأحبها في شبابه . تلك الاغاني التي خاطبها ميتسكيفيتش بقوله :

« يا أغاني القرية ،
يا جسر القرابة بين الأجيال !
فيك يخبىء الشعب
خيوط مصيره
وأسلحة انتصاره .
يا أغاني القرية ،
يا حارسة الذكريات . »

وكان شوبان يسجل انطباعاته في مذكراته ، ومن اروع ما كتبه وهو في فيينا قوله :

« فيينا ، ربيع ١٨٣١ .

« لكم كانت الحديقة جميلة هذا اليوم . كانت هنالك جموع كثيرة من الناس ولكنها لم تثر في نفسي أقل اهتمام ، وانما كنت اعجب بخضرة الارض وعطر الربيع وبراءة الطبيعة التي

تذكرني بايام طفولتي . وكان يبدو كأن عاصفة توشك ان تنفجر ، فعدت الى البيت ، ولم تهب العاصفة بعـــد ذلك ، ولكن الكآبة سيطرت عليّ ، دون ان أدري لذلك سبباً . حتى الموسيقى لا تعزيني في هذه الايام .

« مضى الليل الا اقله وانا ساهر لا يخالط النعاس جفني . لا أدري ما الذي ينقصني . لقد بدأت القسم الثالث من اللحن الذي اضعه . وقد اعلنت الصحف عن الحفلة التي سأقيمها بعد يومين ، ولا اجد في نفسي اي اهـتمام بذلك . اني لأغلق اذني دون عبارات الثنـاء ، وان تفاهتها لتزداد في نظري يوماً بعـــد يوم .

« تساورني رغبة شديدة في الموت . وينازعني شوق مبرح الى اهلي . إن صورتها الآن امام عيني ، ويبدو لي اني لم أعد احبها ، الا ان صورتها لا تفارق مع ذلك مخيلتي .

« كل ما رأيته حتى الآن في الخارج ، يبدو لي عتيقاً لا يطاق ويضاعف حنيني الى منزلي ، والى تلـك الاويقات الحلوة التي لا يسعني التعبير تمامـاً عن قيمتها لديّ ان ما كان يخيـل اليّ انه كبير أضحى في نظري اليوم شيئـــاً عادياً ، وما كان يخيل اليّ انه عادي يبدو لي الآن كبيراً جداً وسامياً جداً .

« ليس النـاس الذين يحيطون بي هنـا اقرباءً لي . انهم طيبون ، ولكنهم طيبون بدافع العادة ، وهم يقومون بكل شيء بكثير من النظام والبرودة والسطحية ، وهـــذا شيء

يقتلني . لا اريد ان اكون أبداً في حالة اقبل السطحية معها

« كل شيء غريب وكئيب بالنسبة الي . وإني لأعاني نصباً شديداً في توفير حاجاتي الضرورية .

« لماذا أنا وحيد ! ... »

●

غادر شوبان فيينا الى سالزبورغ ، فأحب مدينة موزار بجوها الشعري الذي يذكّر بأجواء العصور الوسطى . ثم انتقل منها الى مونيخ حيث اقام حفلة موسيقية أصابت نجاحاً كبيراً . وفي مدينة ستوتغارت بلغه نبأ سقوط فرسوفيا في ٨ ايلول سنة ١٨٣١ بعد نضال دامٍ استمر عشرة اشهر كاملة . فأشجاه النبأ وأثر فيه كثيراً ، وترك في عزته القومية جرحاً لم يندمل طول حياته ، وقلق على مصير رفاقه وفي طليعتهم تيتوس وماتوتشنسكي . وفي هذه الحالة النفسية العاصفة وضع قطعته الرائعة المسماة « اللحن الثوري » فعبر فيها تعبيراً قوياً عن حقده على المستعمرين ، وعن حبه لوطنه وشعبه، وافرغ عليها قوة صافية تقود الفكر الى المثل العليا وتريد ان تصعد بالانسان من حمأة الشقاء والعذاب الى رغد العيش وطمأنينة الروح في عالم تسوده مبادىء الحرية والأخاء والمساواة .

باريس

●

لم تكن باريس في منتصف القرن التاسع عشر عاصمة فرنسا وحسب ، بل كانت عاصمة الفنون ومركز الثقافة الاوربية ، وقبلة الانظار بحيويتها الصارخة ويقظة شعبها وروح الحرية التي تسودها .

وكانت فرنسا ، لما أقبل شوبان إلى عاصمتها ، تجتاز طوراً عظيماً من أطوار نهضتها ، وقد ترك الجمهوريون في حياتها طابعهم التحرري الملموس ، وانصار سان سيمون يبشرون بانجيل جديد ، والسمة المميزة للملايين المواطنين هي الرغبة في تحطيم كل قيد قديم ، وقد تبوأ سدة الادب هوغو وبالزاك وموسه ولامارتين ودوما واوجين سو وجددوا فيه ، وبرز في فن الرسم ديلاكروا وديفيريا وديلاروك ، ولمعت في عالم الموسيقى اسماء كثيرة اشهرها اسم برليوز ؛ وقلّ ان يمر اسبوع دون ان تقام حفلة كبرى تعزف فيها الحان بيتهوفن او هايدن او موزار . ولم تتخلف المرأة الفرنسية عن قافلة النهضة فنبغ نساء كثيرات في طليعتهن السيدة دردوفان التي اختارت لنفسها اسماً مستعاراً هو جورج صاند الذي

عرفت به في التاريخ .

اقبل فردريك شوبان الى هذه المدينـــة العظمى في سن الحادية والعشرين ، يريد افتتاحها بفنـه وهو لا يعرف فيها احداً ، ولا يملك سبيلاً الى تلك الغاية البعيدة المنال ، غير ثقته بنفسه وفنه وقد شارك الفنان ذلك الجيـل المتحرر الصاعد ، بقلبه وروحه ، ولكنه لم يستطـع ان يشاركه في حياته الصاخبة العابثة ، لانه كان ما يزال ذلك الطفل الذى ربته أم تقية رقيقة ، وسهرت عليه اخوات طاهرات حادبات ، ونفتحت مواهبه ومشاعره في اطـار البيت العائلي المتمسك بالتقاليد الكريمة والاخلاق القويمة ، فعزّ عليه ان يفقـد في العاصمة الفرنسية دفعة واحدة ، تلك الحياة النقية والسعادة الهادئة التي يحب .

وكان رقيق العاطفة ، شديد الحياء ، فتهيّب لاول وهلة ذلك المجتمع الحافل الصاخب ، وخشي ان يقتحمـه ويتغلغل فيه ، وفقد ثقته في النجاح الذي يطمح اليه بين اولئك الاعلام العظام الذين يتبوأون مقاليد الادب والفن . الا انه شق عليه ان يعود من حيث اتى ، يائساً مخفقاً ، متخلياً عن الآمال والاحلام الكثيرة التي كانت تملأ مخيلته الخصبة وتفعم قلبـه الكبير . واراد ان يقوم بمحاولات أولية ، ثم يولي وجهه ، ان اخفق فيهـا ، شطر انكلترا أو أميركا لعله يصيب هناك بعض الظفر الذي يريد .

أخذ شوبان يختلف الى الاكاديمية حيث تعرف بشيروبيني

وروسيني وليزت وهيلر وفرانشوم وكالكبيرنر وغـيرهم من اقطاب الفن الموسيقي في ذلك العهـــد ، فرحبوا به ترحيبهم بشاب موهوب لكنه مبتديء، واقترح عليه كالكبيرنر الذي كان يعدّ اعظم عازف على البيانو ، بدافع السخرية أو بدافع الغيرة ، ان يتدرب على يديه ثلاثة اعوام كاملة . وكاد شوبان يعمل بهذه النصيحة لولا ان استاذه القديم ايلسنر صرخ غاضباً اذ اطلعته لويز شوبان على ذلك الاقتراح الذي عرفت بـه من رسالة ارسلها فردريك الى أبويه : « لقد لمسوا عبقرية شوبان وبدأوا يخشون منذ الآن ان يسبقهم ... فيجب ان يشق طريقـــه بنفسه ، وان عبقريته لكفيلة بان تهـديه الى سواء السبيل ، وقد استمد من ارض وطنـه النغم الذي يجعل فنه اكثر طرافة واصالة وافكاره أوفر نبلًا وعمقاً منهم أجمعين ... »

وقد عمل فردريك بنصيحة استاذه القديم ، فاقام في ٢٦ شباط سنـة ١٨٣٢ ، امام جمهور من البولونيين والفنـــانين والنقاد ، أولى حفلاته الموسيقية في باريس ، فاحرز نجـــاحاً يبشر ببعض الأمل ، ولم يكتم ليزت الذي شعر بميل قوي اليه ، اعجـــابه به ، فأثنى عليه ثناء دفعه خطوة كبيرة الى الأمـــام .

ولكن موارد هذه الحفلة لم تكد تعدل نفقاتهـا ، وعاد فردريك تلك الليلة الى بيته وليس في جيبه ما يؤمن طعام غده . وكان أبوه ما يفتأ يكتب اليه داعياً اياه الى الاقتصاد لان بولونيا تجتاز أزمة ماليـة مستحكمة . وهو يعيش في

منزله وحيداً ، يعاني البرد الشديد ، ويسعل في احيان كثيرة . وانه ليشعر فوق ذلك كله بالظمأ الملح الى الحب ، ويتألم من بحثه المخفق عن مثل عظيم يمحضه روحه وفنه . فخامره شعور قوي بانه لا أمل له بالنجاح في باريس ، بين ذلك العدد الكبير من الموسيقيين الذين بلغوا أوج الفن والشهرة ، وفي ذلك المحيط الذي ينبغي للمرء ان تتوافر له فيه اسباب الدعاية الحافلة ، وان يقوم بكثير من المناورات والدسائس حتى يشق طريقه الى المجد الذي يطمح اليه . واشتد حنينه الى الحياة البولونية البسيطة في القرية التي كانت مهداً له ، وفي فرسوفيا نفسها حيث يعرفه الجميع ويحبونه ويفخرون به . وساورته كآبة عميقة كان يضاعفها باستمرار سوء صحته وفقره .

*

كتب الشاعر نيمسيفيتش في مذكراته سنة ١٨٣٢ « تناولت طعام العشاء هذه الليلة في منزل الجنرال كنياتشيفيتش برفقة ميتسكيفيتش وشوبان . إن هذا الشاب لمن خيرة العازفين على البيانو في العالم ، وهو مرح وحبيب الى القلب ، يستطيع أن يقلد حركات كل إنسان ، وقد أدخل السرور الى قلوبنا بفنه وعبثه ... »

لقد عرفنا شوبان سوداوياً كئيباً قانطاً من النجاح ، وها ان الشاعر البولوني يرينا إياه وقد انقلب بين عشية وضحاها ، مرحاً عابثاً ، يسلي المدعوين بألعابه ، ويستسلم الى بدوات سنيه الاثنتين والعشرين .

ذلك ان الفنان قد بلغ بعض النجــاح الذي ينشده ، ولكنه بلغه من أبعد الطرق التي كان يفكر فيها :

كان المهاجرون البولونيون يتوافدون الى باريس زرافات وفرادى بعد إخفاق ثورة فرسوفيا وملاحقة الوطنيين الثائرين . وكان نيقولا شوبان قد كتب الى ابنه غير مرة أن يكون على حذر من هؤلاء المهاجرين ، فلا يثق بهم ويسكن اليهم جمعاً ، لأن بينهم أناساً مشبوهين . الا ان فردريك لم يكن يستطيع أن يغلق قلبه لابناء وطنه ، وكان أحب شيء اليه وهو في باريس ، وأعظم ما يبعثه على العزاء والسلوى فيها ، أن يلتقي واحداً من اولئك المهاجرين الكثيرين الهاربين من جور الاستعمار .

وقد عرّفته عشرته لاولئك البولونيين باسرة بلاتير ، فطلبت منه الكونتس أن يعطي ابنتــها بولين دروساً في البيانو ، وقالت له مداعبة : « لو كنت صبية وجميلة ياصغيري شوبان لاتخذتك زوجاً لي واتخذت هيلر صديقــاً وليزت عشيقا ! » واتفق أن اجتمع في قصرها ذات أصيل ، في ساعة تناول الشاي ، أبطـال تلك المغامرة الخيالية الثلاثة ، وتباروا في عزف نشيد دابروفسكي الشهير « لم تمت بولونيا » فكان شوبان الناجح في تلك المباراة

ثم عرفه الامير انطوان رادزيويل بعدد من سراة الفرنسيين والبولونيين . فانتقل من منزله المتواضع في ضاحية بواسونيير ، الى منزل يفضله في حي سيته برجير ، ثم الى منزل فخم في

شارع شوسه دانتان ، واخـذ يعطي فيه دروساً خاصة في العزف على البيانو مقابل عشرين فرنكا للساعة الواحـــدة ، ويمارس هذا العمل من الساعة الحادية عشرة صباحاً الى الساعة الرابعة بعـــد الظهر ، فيتوافر له من ذلك مبلغ يؤمن له حياة رخية

ولكن نفقات فردريك كانت كثيرة ، لانه كان مضطراً بحكم عمله كمعلم لابناء الطبقات الارستقراطيـــة ، بدافع ميل قديم في نفسه ، الى الحياة الانيقة المترفة . وقد كتب في هذا الحين رسالة الى صديقه دومينيك تشيفانوفسكي قال فيها : « سألقي اليوم ثلاثة دروس ، ولربما تعتقد ، اذ تقرأ هذا ، اني اجمع من عملي ثروة وافرة ، والحقيقة هي ان القفازات البيضاء واجور العربات تكلفني عيني رأسي ، وهي ، وامثالها ، امور ضرورية بالنسبة اليّ . »

على ان شوبان وان بدأ فرحاً عابثاً في هذه الحقبة التي خطا فيها نحو النجاح اولى خطواته ، فقد ظل وجهه شاحباً حالماً وقلبه كئيباً حزيناً ، وظلت تلازمه ذكرى بلاده ، وصور الحياة القروية البسيطة فيها ، وفروسية رجالها وبراءة نسائها ، وبقيت هذه المواضيع هي السائدة في فنه ، سواء في الحان رقص المازوركا التي هي مرح بولونيا ، وان كان الضحك يجاور فيهـــا البكاء ، وقد قال ليزت « انها تظهر التناقض المثير بين الحب والألم وقـــد أذكاه الخطر ..» ، او الكراكوفين وهي الرقص الخاص بناحية كراكوفيا ، وقد

قالت جريدة « الغازيت موزيكال » : « مما يميز الكراكوفيق آمن المازوركا ، كون الاولى اكثر خفة ورقة .. وان فيها لفناً بارعاً ممزوجاً بالشعر يجعل منها عملا موسيقياً فريداً » ، او البالاد وقد نقل شوبان هذا الفن من الادب الى الموسيقى ، فجاء نتاجه فيه كنتاج الشاعر ميتسكفيتش بسيطاً وقوياً في ن واحد ، مرحاً وكئيباً معاً ، فيه الشعور الزاخر والفكر العميق ، وفيه على الأخص العاطفة الوطنية المحتدمة حتى ليحس المرء فيها زحف الجيوش التي لا يوقفها الا الموت ، او البولونيز وهي ألحان جديدة في شكلها ووزنها ، مستمدة من الفولكلور البولونية ، وتبدو فيها شخصية شوبان ذات اصالة قوية . وكذلك شأن الشيرزو الرومانتيـة الزاخرة ، والنوكتورن المفعمة حناناً ورقة ، والفالس المستوحاة من المجالس الارستوقراطية والسهرات المترفة ، وان كانت هذه الضروب الثلاثة الاخيرة لا تعدّ في الدرجة الاولى بين ألحان شوبان . على ان موسيقاه قد بلغت اعلى ذروتهـا في الايتود التي لا تقتصر روعتهـا على الشكل الذي ينبجس باطمئنان ملهَم مدهش ، بل يتعداه الى المحتوى العميق الذي بلغ حداً لا يضارع من الغنى والجمال

*

وكانت النساء الكثيرات اللواتي يلتقين فردريك في المجالس الراقية ، او اللواتي يختلفن الى بيته لتلقي دروسه او سماع الحانه ، يشغفن به وينصبن حوله شباكهن ، وهو عنهن

بعيد ، مشغول القلب بحب مجهول لا يعرف له اسماً ولا صورة . ومنهن الكونتس دلفين بوتوشكا وهي امرأة سمراء سوداء العينين فاتنتها ، ذكية القلب مطبوعة على الفن ، ولكنها متقلبة الأهواء لا ترى الحياة الا لهواً ولعباً .

كان كل شيء يدعوه الى الحب والاستسلام الى متع الحياة الصاخبة التي تحيط به ، ولكن كان يبدو كأنه لا يسمع تلك الدعوة ، ولا يرى صور الاغراء الكثيرة التي تلاحقه وتحدق به .

وكان امتع شيء لديه ان يزور آدم ميتسكيفيتش الشاعر الليتواني الأصل البولوني النشأة واللغة فيسمع منه بعض قصائد طرفته الكبرى « بان تادوش » او يسمعه بعض الحانه الجديدة . وكان الشاعر الكبير قد نفي من بلاده ، وحكم عليه بالاقامة خمس سنوات في روسيا ، فقضى فيها تلك المدة ، ثم غادرها الى باريس ، ماراً بالمانيا وسويسرا وايطاليا . ولما بلغ العاصمة الفرنسية أصبح منزله محجة يلتقي فيها كثير من المنفيين البولونيين والليتوانيين والاوكرانيين والاشتراكيين الروس .

وقد قوت علاقات الصداقة الوثيقة بينه وبين شوبان ، صلاتٌ كثيرة كانت تجمع بين ذينك الفنانين الكبيرين : الشاعر الثائر على الظلم ، والموسيقي الذي يجرحه كل ناب على وجه الارض ، اذ كان يكمن وراء حبهما العميق لوطنهما حب شامل للعالم كله ويشعران من خلال آلامهما الشخصية بآلام

الانسانية باسرها .

وقال الشاعر لصديقه يوماً : « قيل لي ان بعض قصائدي قد اوحت اليك قسماً من الحانك » فاجابه « ان قصائدك قد ألهمتني بشكلها ومواضيعها ، وجعلتني قصائدك المعروفة باسم البالاد ابدع شكلا جديداً من الموسيقى . »

وتحدثا مرة عن المؤرخ موشناسكي الذي كان يعمل حينذاك في الحقل الوطني ، فقال ميتسكيفيتش : « لا ريب في انه يعدّ الآن ثورة جديدة » فقال شوبان : « ماذا ؟ هل سنغرق الارض البولونية مرة اخرى بسيل من الدمـــاء ، ونحمل القوزاق على ذبح اخوتنا الابرياء ، لا لشيء الا لكي يأتي بعد ذلك مؤرخون مثل موشناسكي فيتحدثون عن المعارك الباسلة ؟ لعمري اننا اذا لم نتخلص من الاسياد الأقطاعيين ، فلا سبيل لنجاحنا . » فقال الشاعر « كلا ، لن يكون الأمر هذه المرة على غرار المرات السابقة . اني اوافقك على ان الاسياد قد فرضوا علينا عبوديتهم وأخروا تحرر بلادنا . ولكن التاريخ لن يتكرر . ولسوف ترى مصداق ذلك . وان موشناسكي ليعتقد مثلنا ايضاً بان للفلاح حقوقاً يجب ان يبلغها . وقد يريد مثلنا تطهير بولونيا من انانية النبلاء التي كانت شؤماً عليها » .

فقال شوبان : « اذا لم يُعط الشعب حقوقه فلسوف يستولي عليها يومـــاً متخطياً اليها جثث الأسياد البولونيين والروس والبروسيين والنمساويين جميعاً ». فابتسم ميتسكيفيتش لحماسة شوبان

وقال له : « كفانا ما تحدثنا في السياسة . هلمّ بنا الآن الى قصر الاميرة جيرووش لتسمعنا ألحانك الثورية ، فان في وسع الموسيقى ان تصنع كثيراً من أجل الحرية » ثم قال له وهما في الطريق : « لا تتخل انت عن مهمتك وفنك . فلئن انتجت موسيقى جيدة قدمت اكبر خدمة لقضية الحرية . ولقد ألهمتني الموسيقى في السياسة بقدر ما ألهمتني في الشعر . »

ومرت اعوام كان فردريك دائباً في اثنائها على التلحين والتعليم واقامة الحفلات الموسيقية حتى هيمن على المجتمع الباريسي ، وأصبح المعلم الذي لا يضارع في فنه ولا ينازع في مجده . وقد سماه الشاعر الالماني هنري هاين : « رفائيل الموسيقى » . وكان يلقن تلاميذه دقة الحساسية وصفاء اللمسة ، مطالباً اياهم دائماً برقة اكثر وحنان أوفر . ويعمد الى اطالة الجملة الموسيقية ، فتنبجس من البيانو تحت أصابعه المرهفة أنغام دافئة مسكرة ، تبعث على النشوة ، او تهدهد الاعصاب وتخدرها ، وتجد فيها شتى العواطف تعبيرها البارع بنبرات ذات بساطة معجزة ، وليس يستطيع أحد ان يعرف كم كابد الفنان من عناء وبذل من جهد حتى استطاع أن يؤلف بين الاصوات المختلفة ذلك التأليف الرائع في انسجامه وصفائه .

وكانت قصائد الشعراء البولونيين وفي طليعتهم صديقه ميتيسكفيتش لا تفارق ذاكرته لأنها توحي اليه دائماً صور الأرض البولونية وحياة الشعب البولوني . وقد الحّ عليه اصدقاؤه في تأليف اوبرا فأجابهم : « لست عالماً الى هذا

الحد ، دعوني منصرفاً الى البيانو فهذا هو عملي الذي اجيده.» ولكن الفنانين الكبار كانوا قد بدأوا يعزفون مؤلفاته ، ولا سيما « ليزت » الذي كان يجد فيها صدى لخلجات القلب الانساني ، و« برليوز » الذي اعجب ببساطتها المفرطة واشكالها الجديدة ، أما « ماندلسون » الذي يزخر بالحياة العاصفة فكان يأخذ عليها فتوراً يبعث في رأيه على القنوط ولكنه لا يكتم اعجابه بصاحبها وميله اليه .

ولم يبدل المجد الذي أحرزه الفنان من طباعه التي نشأ عليها ، فظل الخجل يساوره في القاعات الكبرى ، وبقي يتجنب ما استطاع الاجتماعات الشعبية الحافلة ويؤثر عليها المجتمعات البسيطة المنتقاة .

في هذه المجالس الودية التي كان يجتمع فيها بنخبة من المفكرين والفنانين ، كان شوبان يستطيع ان يترك نفسه على سجيتها ، فيرتجل على البيانو في زاوية معتمة ، مقطوعات هي الغاية في الروعة ، وشعره مبعثر على جبينه ، وعيناه تتألقان ضمن هالتين سوداوين حفرهما الألم الدفين والتأمل العميق . وفي بعض الاحيان كانت تشيع في نفسه الكآبة المرهقة فيختتم عزفه باللحن المأتمي ، ضارباً اصابع البيانو بأنامله المرهفة ضربات بطيئة محزنة مهيبة ، ثم يغادر المجلس دون ان ينبس بكلمة ، كي يبكي ، على انفراد ، وطنه وماضيه ومثله العليا ، لأن كل ما حلم به وعز عليه تحقيقه كان ينبثق من قلبه دموعاً حارة أو الحاناً خالدة .

ماريا فودشنسكا

•

التقى فردريك شوبان ماريا فودشنسكا لأول مرة وهو في سن العاشرة ، اذ اقبلت امها مرة الى فرسوفيـــا لرؤية ولديها فليكس وانطوان المقيمين في منزل شوبان ، ترافقهـا الطفلة ماريا وهي بعد في الخامسة من عمرهـا . وقد سألها فردريك حينذاك : « هل تحبين الموسيقى ؟ » فأجابت : « كثيراً » فقال لها : « لسوف نتبادل الحب اذن ! » .

وكانا يلتقيان بعد ذلك في بعض فصول الصيف ، حين يذهب فردريك الى قصر فودشنسكا بضواحي فرسوفيا لقضاء قسم من فرصته ، فكان الفتى يجلس في ظل شجرة يكتب فروض الانشاء ، وهي ترسم الى جانبـه المناظر الطبيعية ، او يقطفان زهور الحقل معاً او يتسلقان الروابي العالية .

ثم انقطع فردريك عن زيارة هذه الاسرة ، لمـا انهمك في دروسه وفنه ، الا ان الفتاة لم تنقطع عن التفكير به ، بل كانت تتابع نجاحه في فن الموسيقى بغبطـــة ، ذاكرة وعده لها وهي في الخامسة من عمرها !

ولما اعتزم الفنان الرحيل عن فرسوفيا ، حرصت الفتاة

على ان تكون بين مودعيه ، وحملت اليه طاقة جميلة من الزهر ، فخففت عن قلبه ، بهديتها اللطيفة وحديثها العذب ، بعض الشجن الذي خالجه في ساعة الوداع .

وقد اشتد اهتمامه بها منذ ذلك الحين فطفق يسأل عنها اخته لويز كلما كتب اليها : كيف حالها ؟ هل هي سعيدة ؟ وهل هي تحبه ؟ وهل يحبها أحد غيره ؟ وقد اجابته لويز ان ماريا اعترفت لها بانها تحبه ولا تشتهي شيئاً مثل رؤيته .

وكان اخوا ماريا يحبان بلادهما ويضطرمان حماسة لها ، فلما نشبت الثورة في فرسوفيا كانا في طليعة الثائرين ، ثم اضطرت اسرتها ، حين اخفقت الثورة وساد الارهاب القيصري ، الى مغادرة وطنها مع كثير من البولونيين المهاجرين ، فاقامت في برلين ثم في جنيف ثم في درسد ، فلاقت حيثما حلت رهطاً من رجال الفكر واعلام السياسة يترددون على مجلسها ، ويتجهون بموفور حبهم نحو ابنتها ماريا السمراء ، الرسامة الموسيقية الشاعرة ، ذات العينين السوداوين المرحتين والابتسامة الرغيبة الخلابة ، وقد أحبها كثيرون منهم ولكن قلبها ظل خلياً لم يظفر به أحد .

وكان فردريك ما يفتأ خلال ذلك ، يراسل فليكس وانطوان ، وكان حريصاً دائماً على السؤال عن ماريا وتوجيه تحياته البريئة اليها . وذات يوم تلقى طيّ رسالة صديقه فليكس ، قطعة موسيقية من تلحين ماريا أهدتها اليه ، فسُر بهذه الهدية سروراً عظيماً ، ووضع في تلك الليلة نفسها لحناً

عاطفياً رقيقاً وأهداه اليها .

وفي صيف سنة ١٨٣٥ أقبل نيقولا شوبان وزوجته الى كارلسباد مستشفياً ، فغادر فردريك كل شيء ووافى ابويه الى تلك المدينة ، وقلبه يفيض حناناً ، وفي نفسه رغبة مبرحة في ان يريح على صدريهما رأسه المجهد ، ويهدىء بينهما الحمى العصبية التي تنهكه .

ولم يكن نيقولا شوبان قد تغير كثيراً ، بل ظل ذلك الرجل المنظم في حياته الدقيق في اعماله ، ذا المزاج المعتدل والضمير المطمئن ، الذي يجمع حكمة القلب الى ذكاء الفكر . وقد تأملت السيدة شوبان ابنها بشوق وحب ، فوجدت فيه الحلم المشبوب والطيبة الكريمة ووداعة الروح ، ولم يدهشها المجد الذي احرزه .

ثم ترك الأبوان العبقرية تحمل ابنهما من حيث اتت به ، فعرج في طريقه الى باريس على درسد حيث زار اسرة فودشنسكا ، وقضى في ضيافتها أياماً سعيدة من اجمل ايام حياته . وكان يمازح ماريا فيسميها تارة « اسوأ تلاميذي طراً » ويدعوها مرة اخرى « زميلتي المحترمة » ثم باح لها بحبه ، وقال لها « لئن تزوجنا فسأضع اجمل الالحان ، وابذل جهدي كي اربح مالا وفيراً ، وسنكون سعداء دائماً ! » فقالت له الفتاة : « وسأكون معاونة لك في عملك ، واذا قضي علينا ان نفتقر ، فلسوف نتحمل الفقر معاً ونظهر عليه بحبنا وأملنا ، ولن يفرق بيننا الا الموت ! » . ولما اعتزم

الرحيل اقبلت ماريا في ساعة الوداع محمومة العينين تقدم اليه وردة حمراء ، ووقف هو شاحباً متلعثماً ثم سار الى البيـــانو فعزف لحناً كان قد نظمه منذ ايام وسماه « صورة ماريا الحسناء ».

وعاد بعد ذلك الى باريس سعيداً طروباً ، تملأ ذكرى الفتاة احلامه ، ويعيش في الجو الذي احاطتـــه به ، مغنياً الحب الذي اوحته اليه . ثم ما لبث ان اعتراه المرض واشتد عليه حتى كاد ينقطع منـــه الرجاء ، وذاع في فرسوفيا انه مات . ولكن الحب انقذه ، اذ كانت ماريا تواصل الكتابة اليه ، فشجعته رسائلها وقوت رغبته في البقاء . ولم يكن في هذه الرسائل كلمة واحدة تفصح عن الحب المتبادل بينهما ، ولكنها كانت تفيض مرحاً وبراءة ، ودلالاً في بعض الاحيان. وقد كتبت اليه مرة : « عندما تكتب اليّ : « كيف حالك ؟ اما انا فاني في صحة جيدة ، واعذرني اذ ليس لديّ متسع من الوقت لاكتب لك اكثر من هذا » أجل ، عندما تكتب اليّ امثال هذه الكلمات ، أرجو ان تضيف اليهـا جوابك ، سلباً أو ايجـــاباً ، على سؤالي اياك : « هـل وضعت اللحن الذي تحدثنا عنـــه وأسميناه : « لو كنت في السماء شمساً صغيرة ، لما أشرقت الا لك » !

وبعد سنة من الحب الملهم انتج شوبان في خلالهـا عدداً من الكونسرتو والبولونيز والبالاد والايتود ، شخص في تموز سنة ١٨٣٦ الى ماريانباد حيث اقامت اسرة فودشنسكا . وفي تلك المدينة الصغيرة الجاثمة بين اطار جميل من الروابي والغابات

قضى الفنان شهراً كاملاً ، انفقه في امتع النزهات والاحاديث ، وعزف اجمل الحانه واروعها ، وشهد ماري في ساعات الهامها وهي منكبة على الرسم متألقة العينين عالية الجبين .

واراد فردريك في هذه المرة اعلان خطبتها وتعيين موعد الزفاف ، وتحدث بذلك الى ام الفتاة ، فاعلنته موافقتها على الخطبة ، ولكنها طلبت منه ان يكتم أمرها عن الاب ، وان لا يتحدث بها ريثما تعدّ لذلك عدته ، لأن الأب وهو ملاك عقاري كبير ، لا يرضى لابنته الزواج بفنان فقير . فعاد الى باريس وكله أمل في المستقبل وشوق الى الحياة .

ولكن الفنان ما لبث ان فوجىء بتغير طارىء في رسائل الفتاة ، اذ بدلاً من ان تزداد عاطفتها فيها اتقاداً ، أخذت تفتر شيئاً فشيئاً حتى كادت رسائلها لا تختلف عن رسائل اخويها في شيء . ولم تكن ماريا لتشير في هذه الرسائل اية اشارة الى حبها ، او الى حياتها الخاصة ، او الى المستقبل الذي طالما تحدثا عنه ونسجا حوله كثيراً من الاحلام . ثم ارسل اليها مجموعة من الالحان أفرغ فيها حبه الوجل وأمله الحائر ، فلم تجب الا بكلمة صغيرة كأنها « إشعار بالوصول » يرسلها تاجر لزميل له منبئاً اياه بوصول البضاعة التي ارسلها اليه !

وزفت ماريا بعد سنة الى الكونت ساربك كما اراد أبوها ثم طلقته بعد سبع سنوات ، وتزوجت رجلاً آخر يدعى اوربيتشيفسكي توفي بعد ثمانية اعوام . وليس من يدري ما هو الأثر الذي بقي في قلبها من حب شوبان .

وحينئذ عرف الفنان ان حلمه لم يكن الا سراباً ، وادرك انه قد ابعد عن الفتاة لأنه ليس الا موسيقياً بائساً ، فلاذ بالموسيقى رفيقته الأمينة يبثها آلامه ولواعج صدره ، اذ لم يبق له الا ان يعرب بالحانه عن كل ما في نفسه من جمال ، وما في قلبه من سمو ، وما تزخر به مشاعره من غضب وفرح وثورة وحنان ، يرسلها صرخات حارة على البيانو لأنه لا يريد او لا يستطيع ان يعبر عنها للناس بالكلمات العادية .

وقد شاهد رفاق شوبان بين اوراقه ، بعد وفاته ، مغلفاً اودع فيه الزهرة الحمراء التي اعطته ماريا اياها يوم فراقها في درسد ، وقد كتب عليها « شقائي »

واصبح الفنان ، بعد ذلك الاخفاق الذي مني به ، وكأنه انتزع من العالم وانقطعت كل صلة تربطه به كان يرود في الشوارع على غير هدى ، او يتلوى في غرفته من الألم ، في سكون الليل ، منادياً أمه كطفل صغير . اذ كان كلما المت به كارثة او ساورته الكآبة ، اتجه شوقه الى هذا الحب الامومي الحادب ، واشتدت حاجته اليه . وكثيراً ما كان يتساءل في غمرة يأسة وألمه : لماذا لا يعود الى وطنه وقد احرز المجد الذي يصبو اليه ؟ ولكن هاتفاً من نفسه كان يجيبه بانه يريد ان يبلغ من المجد ذروته ، وانه لن يتخلى عن هذا الكفاح مهما لاقى من بؤس وعانى من شقاء .

جورج صاند

●

كتب الأدب البولوني نيمسيفيتش في مذكراته بتاريخ ٢٧ تموز سنة ١٨٣٨ : « كان من أمتع ملذاتي دائماً ان اتعرف بالاشخاص الذين اشتهروا بمواهبهم أو بالخدمات التي قدموها للانسانية مثل واشنطون ولافاييت وبيت وفوكس وبيلي وميرابو وغيرهم . وقد تحدثت اليوم الى اديبة شهيرة هي السيدة دودوفان المعروفة باسم جورج صاند ، وهي امرأة صغيرة القد ، حسنة التكوين ، بارعة الجمال ، ذات عينين سوداوين ، تتحدث قليلا ولكنها تتحدث جيداً ، ولها موهبة أدبية فذة يقدرها الجميع ، ولكن من المؤسف انها تعيش حياة حرة ، مع انها تؤمن بالله ، وبخلود الروح ، وبالحياة الثانية السعيدة . وهي تسحر الجيل الطالع بأصالتها في كل شيء ، حتى في ثيابها ، لانها ترتدي ثياب الرجال . وقد كانت ترتدي اليوم معطفاً عربياً ، أي وشاحاً واسعاً من النسيج الابيض ذا قبعة من جنسه ولونه ، وقد استرسل شعرها الجميل على كتفيها . وكان يصحبها ابنها موريس الذي يبلغ الثانية عشرة من عمره ، وابنتها ـ ولانج التي تبلغ سن العاشرة . »

وقد تعرف شوبان بجورج صاند لأول مرة في خريف سنة ١٨٣٦ بفندق فرنسا ، حيث كان يقيم الموسيقي ليزت وماري داغولت ، فنفر منها وتركت في نفسه أثراً سيئاً وكان بالزاك يقول : « ان سحر صاند يكمن في عينيها » ولكن فردريك قد أبغض نظراتها الجريئة ، وضاق بها ، وقال لصديقه ليزت : « اني لا أحب صاحبة هاتين العينين السوداوين ! » بينما كان خيرة الأدباء والفنانين يفدون الى فندق فرنسا لرؤيتها والظفر بنظرة منها .

وكانت فرنسا بعد ان خرجت من عهد الرستوراسيون وانعتقت من الروح المحافظة الرجعية التي سادت في خلاله ، قد ساورها رد فعل غريزي شديد نحو الحرية بجميع ضروبها واشكالها . وقد استجابت جورج صاند لنداء العصر ، فاندفعت في تيار الحياة العابثة ، محطمة قيود العرف ، وأحبت عدداً من الفنانين الذين افتتنوا بها ، ولكنها ظلت تبحث عن الرجل الذي يفهم عاطفتها الزاخرة ، ويقدر حاجتها الى الحدب على قلب معذب ، اشبه باولئك النسوة التعيسات اللواتي يلجأن الى الدين ينشدن فيه العزاء بعد حياة مملوءة بالخطايا . وقد كانت فاجعتها عظيمة حينما هتف بها الفرد دموسه : « واهاً لك يا جورج ! لقد حسبتِ نفسك عشيقتي ، وما كنت لي الا اماً » .

بيد انها كانت ما تكاد تأسو جراح قلبها كأم وعشيقة في آن واحد ، حتى تبحث عن متعة جديدة والم جديد .

وقد أصغت الى موسيقى شوبان طويلاً فوجدت فيها مثلاً اعلى للحب ربما أخذ شكل العبادة للمرأة ، ورأته ، بعد القطيعة بينه وبين ماريا ، كئيباً حزيناً ، مستسلماً الى الهم المقيم والألم اللاعج ، فاعتقدت ان من واجبها ان تظلل بجناحها السابغ هذا الشاب الملهم الذي يصغرها ببضعة اعوام ، وان تهدهد قلبه المعذب بالحب الحادب ، وان توجه بفتنتها وذكائها في طريق الابداع الحق .

وقد اثارها الاهمال الذي قابلها به فردريك في بدء تعارفهما ، واستفزها ذلك ، فأخذت تهتم بامره وتسأل عنه ، وما زالت عاطفتها نحوه تنمو حتى قالت لماري داغولت يوماً انها تعبده عبادة الوثني لصنمه ، فاجابتها هذه في شيء من السخرية والقسوة : « ان شوبان يسعل سعالا متواصلا . . انه لرجل حائر وليس لديه الا السعال الدائم ! »

وكانت ماري هذه امرأة عالية الرأس ، نقية الجبين ، لها عينا طفل ساذج وشعر متموج كأن فيه روحاً حية ، وعاطفة يمتزج فيها الخضوع بالبراءة . . . فخشيت على فردريك من جورج صاند المغامرة وحاولت جهدها ان تبعدها عنه ، ولما سلكت هذه ، ذات صباح ، من باب حجرة الفنان ، بطاقة مهرتها بتوقيعها وكتبت عليها هاتين الكلمتين البسيطتين « انك لتُعبد ! » كانت القطيعة بينهما .

*

كان فردريك ، بعد الصدمة الشديدة التي مني بها ،

والألم العميق الذي سحق قلبه ، قد اعتراه رد فعـل قوي فاستسلم الى موجة الحيـاة تحمله كيفما شاءت . فكان يقضي الليل بطوله متنقلا من حانة معربدة ، الى مقصف انيق ، الى مجلس ارستوقراطي مترف ، يلبي كل دعوة توجه اليه ، ويذهب اينما ساقته قدماه ، محاولا ان ينسى همومه في غمرة الحياة اللاهية العابثة . ولكن الامر لم يطل بـــه ، حتى زاد شحوبـــه وتضاعف هزاله ، وبدت عليه اعراض السل ، ونصحه الطبيب بالراحـــة واستنشاق الهواء النقي والتعرض للشمس ما استطاع الى ذلك سبيلًا . فلما توثقت عرى الصداقة بينه وبين جورج صاند ، كان اول امر اقترحته عليه مرافقتها مع ولديها الى جزر الباليار حيث يلاقي ما هو بحاجة اليه من متعة ودفء وراحة .

وليس من يستطيع التأكيد هـــل احبت جورج صاند شوبان حباً عادياً مدفوعاً بعاطفتها الجنسية الملتهبة ، أم احبته حبّ الام لوليدها كما كانت تقول جادة حيناً وهازلة حينـاً آخر . وكل ما نعرفه ان فردريك قد تأثر بما اظهرت من حدب عليه ، وانه تعلق بها مدفوعاً بما كان يحس من حاجـة شديدة الى عطف الام وحنانها . وقد اجاب دعوتها مشوقاً الى هذه الرحلة نحو شمس الجنوب تطهر جسمه وتنعش روحه ، الا انه كتم امرها عن معارفه مخافة ان يتعرض للانتقـــاد والتقريع . ورحل معها الى برشلونة ، ثم انتقلا مـع موريس وسولانج الى جزيرة مايوركا الساحرة فوصلوا الى عاصمتهـــا

بالما في التاسع من تشرين الثاني سنة ١٨٣٨ .

وقد أضرّ البحر بصحة فردريك ، ثم استعاد نشاطه لما نزل الى الجزيرة ، وكتب من هناك الى صديقه فونتانا :

« أنا في بالما بين اشجار النخيل والارز والندّ والصُبّار . السماء هنا فيروزجية ، والبحر أزرق ، والجبال بلون الزمرد ، والشمس تسطع طول النهار ، والناس ما يزالون يرتدون الثياب الصيفية . وفي الليل تتعالى أصوات الغيتار من كل جانب . وعلى الشرفات تدب عرائش وحشية .

« ليس لدي بيانو حتى الآن ، ولكني سارسل اليك البريلود بعد قليل .

« سأسكن عما قريب ديراً رائعاً ، في اجمل بقعة في العالم ، ومن حولي البحر والجبال والنخيل والقبور ، وكنيسة الصليبيين ، وانقاض جامع قديم ، وبضعة اشجار ضخمة من الزيتون .

« يخيل اليّ اني احيا اكثر من قبل يا صديقي العزيز ، لأني قريب من الجمال اكثر من كل حين . اني احسن حالا مما كنت عليه في يوم رحيلي . وجورج تساورها نشوة قريرة ! »

وفي هذا الجو الشعري ، وبهذا الشعور بالحياة ، أقبل شوبان على التأليف ، فوضع عدداً من البريلود والايتود والفالس والمازوركا والنوكتورن بينما جورج صاند تحوطه باعظم ما تحيط به امرأة صديقاً لها من عناية ورعاية .

ولكن الشتاء ما لبث ان فاجأهما سريعا ببرده القارس ، واخذ المطر ينهمر بغزارة متسللا الى غرفة فردريك من

خصاص النافذة وشقوق السقف والجـدران ، واستبدلت الطبيعة وجهاً عبوساً من وجهها المشرق ، فساءت صحـة الفنـان بدلا من ان تتحسن ، وضاعف من سوء حالته فقدان الادوية والالبسة واسباب التدفئة . فارتحلا الى دير فالديموزا على بعد عشرة فراسخ من بالما . وانما اضطرا الى سكنى الدير في كلتا المرتين لفقدان الفنادق ونفور الاهالي منهما في المدينة .

وقد كتب شوبان الى فونتانا : « سأذهب غداً الى دير فالديموزا الجميل ، وسأكتب في حجرة راهب عجوز لا ريب في انه كان ينطوي على نار اكثر احتداماً من النـار التي تشتعل في صدري .. » ثم كتب اليه بعد ايام : « بين امواج البحر وصخوره يقوم الدير المهجور ، وفي غرفة ذات باب لا مثيـل له في باريس ، تراني ، لو اتيح لك ذلك ، مبعثر الشعر ، دونما قفازين أبيضين ، شاحباً كشأني دائماً .

« من نافذة هـذه الحجرة التي تشبه نعشاً كثير العلو ، والتي يكسو الغبار جدرانها العارية ، أطلّ على اشجـار البرتقال والنخيل والسرو . وامام هذه النافذة الضيقة ، يقوم سريري على محازم من الجلد ، تحت نقوش مغربية . وعلى مقربة منه منضدة مربعة عليها محبرة لا استعملها إلا قليلا ، وشمعدان وشمعـة ومؤلفات باخ ومخطوطاتي . والسكون العميق يسود المكان .. وان المرء ليصرخ فلا يكاد يعكر هذا السكون ! ألا اني لاكتب اليك من مكان عجيب .. »

ولكن ذلك السكون كانت تعكره احياناً نوبات السعال، او اصوات موريس وسولانج تتعالى في الرواق ، او ضجة القرويين اذ يقبلون الى الدير ليرقصوا في ساحته ، او يعكره عصف المطر وزمجرة الريح ، ثم يعود صافياً ساجياً عميقاً يُشيع في نفس شوبان الكآبة والضنى ، فتحمله افكاره الى الارض البولونية ، والى حرارة الاجواء العائلية ، وطهارة الحب السامي ، ويحلم بأبويه اللذين يجهلان مغامرته ، وباصدقائه الذين يوجهون اليه امرّ اللوم ، وبجورج صاند الصاخبة الماجنة التي يختلف عنها طبعاً وخُلقاً . والمطر خلال ذلك يتساقط ، والريح تشتد ، والظلام يهبط ، والصور الغوابر تطالعه من غيابة الماضي فيذكر اختيه لويزا وايزابيل ، ويذكر كونستانس وماريا ، ويذكر بولونيا والثورة وقواه المتداعية ...

ان كل ذلك قد اصبح بعيداً .. ان كل ذلك قد مات .. ولم يبق الا الليل البارد المفجع الذي يبسط جناحيه السوداوين على تلك الانقاض ، والا اشباح الرهبان التي تطوف حوله في تلك الحجرة الشبيهة بالنعش . ويدنو الفنان من البيانو ، جريح النفس ، جريح الجسد ، ليعزف الحان اليأس الذي يستبد به ، وليطرد بحمى الفن حمى الشك والقلق واللوعة ، ثم يقع منهوك القوى بين ذراعي جورج صاند اذ تقبل لتسأله عن صحته وتطمئن عليه .

وقالت جورج صاند فيما بعد في قطعة كتبتها بعنوان « شتاء في مايوركا » :

« كان يظل حتى الساعة العاشرة مساء ، مكباً على البيانو ، شاحباً ، زائـغ العينين ، مبعثر الشعر ، وكانت تنقضي بضع لحظات قبل ان يعرفني ، وحينئذ يحاول ان يبتسم ، كي يعزف لي القطعة التي وضعها أو ما اوحته اليه الرهبة في وحدته المفعمة بالاحزان والمخاوف

لقد كتب في ذلك الحين ، أجمل الحان البريلود كما كان كان يسميها تواضعاً وانها في الحق لطرف رائعة ، تنجم في بعضها أشباح الرهبان الاموات وتُسمع الحـان مآتمهم وتشرق في غيرها الشمس ، والصحة ، وقهقهات الأطفال ، وعزف القيتار ، وتغاريـد العصافير في خميلة ظليلة ، او الورود الشاحبة الصغيرة التي تنفتح في الثلج . وهناك اخرى مخوفة ، ممزقة ، تحطم القلب فيما تداعب الأذن . »

المجـــد

●

لم يبق بد من مغادرة جزر الباليار ، لان صحة الطفلين موريس وسولانج كانت تتحسن في مناخها الشديد الوطـأة ، أما صحة فردريك ، ذلك الطفل الآخر ، فقـد ازدادت سوءاً حتى بات يبصق الدم بصورة مروّعة ، وازداد لونه شحوبـاً حتى أضحى كالميت ، وأصبح بحاجة سريعـة الى عناية موفورة وراحة طويلة .

وقد أغضب ذلك جورج صاند ، ولكنها أخذت تعـنى بالصغير ، كما كانت تسميه ، باخـلاص وعطف ، اذ تحولت من عشيقة الى ام حادبة . وكانت تكتب الى اصدقائها في باريس الرسائـل الطوال عن الطبيعة التي تحيط بها وتملأ بجمالهـا ونقائها صدرها وعينيها ، وقد قالت فيما بعد « حينما أضيق بمنظر الوحل والضباب في باريس ، اغمض عيني فأرى ، كما لو أني في حلم ، ذلك الجبل الأخضر ، وهاتيك الصخور الوحشية ، وتلك النخلة الوحيدة الضائعة في سماء وردية اللون » .

بيد ان شوبان لم يعد يميز خطوط تلك الطبيعـة الساحرة ، او تستوقفه الوانها الجميلة ، بل كان يكتفي بالنظر

الى نفسه والاصغاء الى خلجات ضميره . فلما عـــاد الى مرسيليـــا تحسنت صحته قليلاً ، وعاوده تذوقه للحيـــاة والاستمتاع بجمالها ، الا ان جورج صاند كتبت مع ذلك : « لقد ألفت ان اراه في السماء ، بحيث يخيّل الي ان حياته او موته لا يعنيان شيئاً لديه ، وانه ليجهل هو نفسه في أيّ كوكب هو . . . » .

وظلا في مرسيليا حتى شهر ايار ، ثم ذهبا من ثم الى « جين » فزارا الامكنة التي تنقلت فيها جورج وألفرد دوموسه كثيراً . وكان فردريك يجهل ذلك ، أما المرأة فقد شاقتها استعادة تلك الذكريات . وفي اوائل حزيران سنة ١٨٣٩ بلغا مغنى جورج صاند المعروف بقصر نوهان في ناحية بيري. فنعم فردريك ثمة بجميع اسباب الراحة ، وجعل يتبـــع نصائح الطبيب ، ويحيا حيـــاة هادئة مرحة مع موريس وسولانج وكأنه طفل مثلهما . وكان يقوم في بعض الاحيان بنزهة قصيرة في البرية ، على الدروب الخضر التي تظللهـــا اشجار البنـــدق . ويعزف احياناً اخرى لجورج صاند في ذلك الاطار الوديع الذي يبعث بعض الاطمئنان في نفسه التي ما يزال يعذبها القلق ، وهي تصغي اليـــه وتتأمله كما تتأمل الأم الرؤوم طفلها المريض ، وتفهم العاطفة الصافية ، والألم العميق اللذين يعبر عنهما في فنه . وقد قالت عنه في مذكراتهـــا : « ان عبقرية شوبان هي اعمق العبقريات التي وُجِدَت واكثرها امتلاء بالعواطف والمشاعر . انه يجعل لغة

اللانهاية تتكلم على آلة واحدة . وانه ليستطيع ان يلخص في سطور عشرة في وسع الطفل الصغير ان يعزفها ، قصائدَ ذات سمو عظيم ومآسي ذات قوة لا تضارع . »

وظل فردريك يقضي فصول الصيف في السنوات السبع التالية في هذا المغنى الهادىء ، مغنى نوهان ، لم يتخلف عنه إلا صيفاً واحداً . وقد ترك ذلك اثراً كبيراً في حياته غيّر مجراها عما كانت عليه

في هذا المكان ، اكثر من كل مكان آخر ، كان شوبان يشعر بانه موسيقي كبير تحرر من دروسه وحفلاته ، وتوفرت له جميع اسباب الراحة ، فانصرف الى العمل والانتاج ، فكان يدرس مؤلفات الموسيقيين الكبار ويطالع بالبولونية ميتسيكيفتش وبالفرنسية فولتير ، ويكتب الرسائل الى اصدقائه واهله ، أو يعزف لنخبة من الاصدقاء والذين يترددون الى ذلك المغنى الجميل وفي طليعتهم ديلاكروا وليزت وبالزاك ، او يمثل لهم احياناً مقلداً حركات الاشخاص الذين يبغضهم وفي مقدمتهم قيصر روسيا وامبراطور النمسا وملك بروسيا الذين يتقاسمون بلاده ، او يرسم لهم على البيانو صور الاصدقاء الذين يعرفونهم ،نساء ورجالا ، مصوراً قسمات المرء واخلاقه وحالاته النفسية بنبرات موسيقية موفقة ومقاطع معبرة على جانب عظيم من الدقة والروعة !

وقد اشتهر شوبان في المجالس التي يختلف اليها ، بهذه « الرسوم » التي يصورها بالحانه ، فاكسبته بعض الاصدقاء

ولكنها خلقت له كثيراً من الخصوم ، لأنه كان أميل فيها الى ابراز العيوب منه الى اظهار الحسنات ، وكان يقول بواسطتها ما يمسكه حياؤه عن التصريح به في حديث عادي من دخيلة نفسه والانطباعات السيئة التي تتركها فيها عشرته لهذا أو ذاك .

الا ان ذلك لم يكن ليمنع الكثيرين من اصدقائه ، ولا سيا النساء منهم ، عن الالتفاف حوله في السهرات الحافلة التي تضمه وعلية القوم ، وكل منهم يريد أن يرسم له الفنان صورته مدفوعاً بالفضول وحب الذات . فكان ينظر الى « موضوعه » طويلاً ، ويتأمل قسماته بدقة ، ثم يشرع في العزف ، واذا العيون والجباه والأنوف والأفواه والقدود ، بجمالها أو قبحها ، والاخلاق والطباع والعادات ، بسموها او انحطاطها ، تصبح انغاماً موسيقية تنتزع الاعجاب او تثير النفور ، او تحمل على الضحك ، او تبعث الاسى العميق لما تعكس من مآسٍ يطالعها شوبان في بعض الوجوه .

وذات مساء أقبلت نحوه ، في منزل السيدة ماريلياني ، الكونتس دلفين بوتوشكا التي كان قد اهداها عدداً من الحانه وقالت له باستحياء : « هل تريد ان تعزف صورتي يا فردريك؟» فخامر جميع الذين سمعوا صوت المرأة القلق ان الفنان لن يقسو عليها ، وان صورتها ستكون صورة رقيقة ناعمة أشبه بتلك الصور التي يتسامح فيها شوبان احياناً فيغفل منها العيوب . وكانت المرأة قلقة حقاً ومتخوفة كثيراً ، من هذه

المغامرة ، ولكنها لم تستطع مقاومة الرغبة الشديدة التي تدفعها الى تلك التجربة .

تأمل فردريك المرأة بضع لحظات باهتمام : لقد كان لها وجه وديع ذو جمال أخاذ ، يتناقض تناقضاً شديداً مع خُلقها.

وعمد الموسيقي الى خمار الكونتس ، فنشره على البيانو ، ثم اخذ يعزف على الاصابع التي تبدو من تحت هذا البرقع . وبدأ اللحن متقطعاً ، لاهثاً ، ثم شاعت فيه عذوبة ورقة تبعتهما موجة عاصفة . وكان الفنان يريد ان يرمز بهذا النغم الى لآلىء تلقى في بحر هائج . ثم تحول النغم الى زقزقة سرب من العصافير تتجاوب على أغصان يداعبها النسيم وكان العزف من البراعة بحيث يخيل للحاضرين احياناً ان رئاتهم تمتلىء باريج البساتين المزهرة ، ولكن هذا النغم كانت تشوبه بضع لحظات ، بضع لحظات فقط ، اصوات جارحة تنتهي بقهقهات ساخرة ، يعقبها تساقط اللا لىء واحدة فواحدة في البحر الهائج . ثم تعود العصافير فتغرد ، والزهور تتفتح وتضوع .

تلك كانت « صورة » الكونتس دلفين التي عزفها شوبان لقد برزت فيها جميع صفاتها ومعالمها ، وكان الخمار الممدود على البيانو يزيدها بروزاً وتأكيداً .

وهكذا انتقم فردريك من تلك المراة التي زعمت له يوماً انها تحبه : انه لم يخف عمن حضروا ذلك المجلس ، كونها امرأة ينقصها الاخلاص ، وقال لهم انه لا يراها أهلاً للافكار

العميقة ، وانها تضيع حياتها بملذات باطلة ، ولا تعرف الثبات إلا على التلون والتقلب .

وقد شاعت الكآبة في نفس الكونتس دلفين ، وبدا الحزن في وجهها ، وهي تبتعد عن البيانو . لقد فهمت ، وشعرت ، في ذلك الوقت على الأقل ، بالألم لافتضاحها على هذا الشكل ، ولم يعزّها كونها أحسّت ان شوبان يتألم ايضاً ، وربما اضعاف ألمها ، لأن خُلقها يشوه في نظره جمالها .

ولما غادر الفنان مقعده ، هرع اليه صديقه غريزمالا يرجوه ان يرسم « صورة » امرأة غاية في الجمال كانت تتحدث في زاوية الحجرة مع مالي كبير قائلًا له « انظر اليها قليلا .. ألا ترى انها تفرغ كثيراً من فتنتها على هذه الآنية الفنية الموضوعة الى جانبها ؟ » ولكن شوبان رفض طلب صديقه قائلًا له بسخرية : « هذه ماريا ... وهي تعتقد الآن انها احرزت كل شيء ما دامت قد اصبحت امرأة غنية » .

وجالت عينا شوبان تبحثان عن جورج صاند ، وكانت تتحدث مع ليزت ، فلما لمحته مقبلا هرعت نحوه وقالت له معاتبة اياه على القسوة التي بدرت منه نحو الكونتس بوتوشكا « ان دلفين تحبك يا فردريك ، وانا على يقين من انها ستحبك طول حياتها » . فلم يجب ، ولكن شفتيه اخذتا تغمغمان اللحن الذي عزفه الساعة على البيانو ، ، كأنه يريد ان يقول لها بذلك ان دلفين ستنساه سريعاً .

فذكرت جورج صاند صديقها بالالحان التي اهداها الى

دلفين وقالت له : « لقد جعلتها خالدة مع ذلك ، كما جعلت ماريا فودشنسكا والكونتس ماريوليس وكثيرات غيرهما من الخالدات لقد اهديت ما لا يقل عن اثني عشر ايتود الى ماري داغولت ، ومثل هذا المقدار من المازوركا للاميرة درفورغبرغ العجوز ، وانا لم تهدني واأسفاه شيئاً ، لا نوكتورن ولا مازوركا ولا ايتود ، حتى ولا بريلود . فلمَ ذلك يا فردريك؟ لماذا لا يذكر اسمي في مؤلفاتك ؟ »

ولكن المدعوين كانوا قد تحلّقوا حول المائدة لتناول طعام العشاء ، واقبلت صاحبة البيت السيدة مارلياني تدعو شوبان وصاند الى المائدة السخية ، فانقذ ذلك الفنان من الجواب .

ولما انتهى العشاء اقبلت السيدة مارلياني نحو فردريك تطلب منه ان يعزف « صورتها » . فدلف الفنان الى البيانو وقد أصبح وجهه المعبر بلون الرماد ، ومسّ باناملة اصابع البيانو قليلاً ثم ابتعد عنه ، وانحنى امام السيدة صاحبة الدعوة ، واتجه نحو الباب . فقالت مارلياني : « ولكنك لم تعزف صورتي يا سيد شوبان » فاجاب وقد أغضبه هذا الالحاح ، الذي جاء بعد تناول الطعام مباشرة : « ولكني لم آكل إلا قليلا جداً يا سيدتي ، فمن الغبن الفاحش ان تطلبي مني اكثر من هذا ! »

قال ذلك بلهجة جدية اثارت الضحك ، وظل متابعاً سيره نحو الباب ، وقد اسخطته السيدة مارلياني في مقاضاته بثمن العشاء على ذلك الشكل الوقح . وقال لصديق له وهو

يغادر المنزل : « ان هؤلاء الارستقراطيين يريدون ان ينتزعوا مني جميع الالحان .. كلما دعوني الى تناول العشاء ! »

*

وكانت له في نوهان تلميذة وحيدة هي سولانج دودوفان ابنة جورج صاند ، عكف على تلقينها فنه وتربيتها على ذوقه وخلقه ، وقد نشأت بينهما صداقة وثيقة واحبها حب الاب لأبنته ، ولطالما تمنى ان تكون ابنته حقاً ، او تكون له ابنة في سنها وفي ذكائها . اما الفتاة فكانت تعامله كأب حقيقي لها ، فتفضي اليه بهمومها ومطامحها ، وتسمع نصائحه باذن صاغية وقلب رغيب ، وتستشيره في كل شأن من شؤونها ، وقد وعدته بان تنهج في سيرتها نهج الحياة الفاضلة ، وان تنشد المتعة في العمل الخيّر والانتاج المثمر . ولقد برت بوعدها ، فكانت طول حياتها النبيلة النيرة ، على رأس الحركات الثورية في فرنسا ، وكان الكفاح الذي اعلنته على البؤس من اعظم مفاخر وطنها .

اما في باريس فقد استأجر شوبان وصاند منزلين متجاورين في شارع بيغال . وقد عاد الفنان هناك الى اعطاء الدروس الخصوصية ، فاقبل عليه الطلاب اقبالا عظيماً فكان يلبي طلبهم جميعاً رغم ان ساعات الدرس كانت تضنيه ، ليوفر اسباب الحياة المترفة التي يحياها .

وكان يتناول الطعام عند جورج صاند ، ويقضي اكثر لياليه في مجلسها وكثيراً ما يوافيها الى هناك اصدقاؤهما

فيعزف شوبان لهم بعض الحانه ، او يغادرهم معتـــذراً في عربة تنتظره عـلى الباب لتقله الى سهرة ارستوقراطية لدى هذه السيدة او تلـــك من سيدات باريس الشغوفات به ، وجورج تهزأ في سرهـا ، وفي العلن احياناً ، من هـــذه السهرات الارستوقراطيـة التي تكرههـــا كما تهزأ من تلك العلاقات الغرامية . ألم تكتب عنه في مذكراتهـا « منذ سبع سنوات وانا اعيش معه كعذراء ... »

وذات مساء من اماسي الربيع ، اجتمع رهط من اصدقاء شوبان ، فجلس عـــلى مقربة منه هنري هاين اشد الكتاب الفكهين حزناً ، وانتبذ ديلاكروا مكاناً مظلماً في القاعـــة ليدرس انعكاس النور على الوجوه ، ولاذ ميتسكيفيتش بزاوية بعيدة صامتاً مفكراً ، واستلقت جورج عـــلى مقعد وثير وأصابعها تلامس وجههـا بحركة عصبية وهي تصغي وتحلم ، وانحنى ليزت على صديقه يراقب حركة انامله عـــلى اصابع البيانو ، وتفرق بقية المدعوين في انحاء القاعة .. وشوبان يعزف قطعة رائعة من تأليفه ، ثم يفكر كعادته بوطنـــه الشهيد الذي اوحت اليه انغامه الشعبية اكثر مؤلفـــاته ، فيعزف نشيد دابروفسكي « لم تمت بولونيا » ، فمـا يكاد ينتهي منه حتى يقبل عليه الجميع يصافحونه باعجاب شديد ، ويتقـــدم ميتسكيفيتش فيقبله ، ويهتف المركيز دو كوستان « ان شوبان بولوني اكثر من بولونيا » ، امـا زاليسكي فيسترسل في البكاء والنحيب ، وتقبل جورج فتصافحه بدورها فيقبّل

يدها وترتجف يد المرأة تحت شفتيه الباردتين .

هكذا كانت تنقضي تلك السهرات الشيقة في تبادل الاحاديث الممتعة او سماع موسيقى شوبان . » فاذا كان ميتسكيفيتش حاضراً ، اخذ يتلو قصائد رائعة من شعره ، فيسود الصمت الثقيل ، وتتألق العيون ، وتجمد الدموع تحت الجفون ، وتسري الرعشة في اجسام المهاجرين ، لانهم يفكرون في النضال ، ويذكرون الشهداء ويحلمون بقراهم الوديعة ، وبسني حداثتهم ، وبأفراح الماضي الذي لن يعود ... وميتسكيفيتش ينشد شعره ويمزج صوره وأخيلته بامثال الأنجيل ، او يتلو صلاته الرائعة التي يقول فيها :

« ايها الاله العظيم ! لقد اتينا اليك ، ونحن ابناء امة محاربة . اتينا اليك دونما سلاح من جميع انحاء العالم . اننا نناديك من مناجم سيبيريا وثلوج كمتشتكا ، من سهوب الجزائر ومن اراضي فرنسا . فارحم يا رب وطننا ، واجعلنا نمجدك ، شأن ابائنا ، في ميادين القتال ، والسلاح في ايدينا ، امام مذبح مصنوع من القنابل والمدافع ، وتحت خيمة منسوجة من اعلامنا وريش نسورنا . واسمح لعائلاتنا بان تصلي اليك في كنائس مدننا وقرانا ، ولابنائنا بان يركعوا على قبورنا . لتكن مشيئتك يا الله ! »

وربما احتدمت سورة العاطفة في الشاعر لان كفاح بولونيا لا يوجه توجيهاً صحيحاً فصرخ غاضباً :

« ايتها الأم البولونية ، انظري الى ولدك

اركعي امام عذراء الآلام ،
وشاهدي الحسام الذي يخرق صدره
وانتظري حتى يخرق عدوك صدرك بذلك الحسام .
ليزدهر السلام في العالم
ولتتحد الدول والشعوب والافكار :
ان ابنك مدعو الى معركة غير مجيدة
والى استشهاد لا يعقبه بعث
لأنه لا يذهب الى المعركة
مثل ابطال الايمان الميامين الغابرين
او مثل جنود العالم الجديد
الذين يزرعـون بذور الحرية ويسقونها بالدماء . »

*

وتمرّ الاعوام ، موزعة بين الدروس ، والحفلات ، والاصدقاء ، والصيف في نوهان ، وجسم الفنان المجهَد ينحني اكثر فاكثر نحو الارض ، ولكن فنه يعلو باستمرار حتى يبلغ القمة التي طالما تاق اليها ويحرز المجد الذي شدما طمح اليه ، وتفيض عبقريته بسخاء غني متنوع فتجري امواج الموسيقى من تحت انامله زاخرة متدفقة حاملة الى العالم كنوز قلب كبير .

وقد وصف ليزت في جريدة « لاغازيت موزيكال » حفلة أقامها في سنة ١٨٤١ ، فقال بعد ان وصف القاعـة والجمهور الذي احتشد فيها اروع الوصف : « .. وكان ثمه بيانو كبير مفتوح على منصة عالية يتزاحم حولها الحاضرون ، كل يريد

ان يجلس في ادنى مكان اليها ، وكل يرهف اذنه سلفاً ، ويجلس صامتاً خاشعاً لا يريد ان تفوته نبرة واحدة ، او فكرة واحدة ، او حركة واحدة ، مما يصدر عن ذلك الرجل الذي سيجلس هناك . ولقد كانوا لعمري على حق في نهمهم وانتباههم وخشوعهم الديني ، لأن الرجل الذي ينتظرونه ، ويريدون ان يروه ، ويسمعوه ، ويعجبوا به ، ويصفقوا له ، لم يكن عازفاً لا يضارع وحسب ، او موسيقياً خبيراً في فنه وحسب .. او فناناً ذا شهرة واسعة وحسب .. بل كان ذلك كله واكثر من ذلك كله : لقد كان فردريك شوبان ! »

ومما قاله عنه ديلاكروا الرسام الفرنسي الكبير في ذلك العهد ايضاً : « لقد اجتمعت غير مرة بشوبان الذي احبه كثيراً ، وفي رأيي انه رجل ممتاز فذ ، وهو اكبر فنان بين الفنانين الكثيرين الذين عرفتهم حتى الآن » .

بين امرأتين

●

بينما كان فردريك شوبان يصعد نحو المجد ذلـك الصعود السريع ، كان حنينه الى وطنه والى رؤية هذا الوطن حراً مستقلا يشتد . وقد مات في خلال ذلك الشاعر نيمسيفيتش فبكاه الفنان بدموع حارة ، وتوفي زيفني استاذه القديم فخيل اليه انه قد اودع معه طفولته كلها في القبر . ثم تبعه عدد من رفاق فردريك واصدقائه القدماء . وفي الثالث من ايار سنة ١٨٤٤ انطفأ نيقولا شوبان في فرسوفيـا ، ومنذ هذا التاريـخ ، بـدا ان جسم فردريك الذي انهكه المرض ، اصبح عاجزاً عن المقاومة ، واستبدّ بـــه القلق العنيف . وكان ينظر الى مؤلفاته فلا ترضيه ، وتضج في نفسه رغبة قوية لانتاج اثر اعظم منها واقرب الى الكمال . وقد كتب الى فونتانا : « اني احب هذا القلق الذي يعصف بي حبـاً شديداً ، حتى اني لأرتجف دائماً وانا منكب على اوراقي » .

وتعاظم ميل فردريك على اثر ذلك الى جورج صاند ، لحاجته المتعاظمة الى حب المرأة وحنان الأم . ولكن جورج أخذت تضيق بمهمة الممرضة التي تقوم بها ، وان كان لم يبد

منها ذلك ، بل بدا ان عنايتها به تزداد وحرصها على راحته تشتد . كانت تتقاسمها وتتصارع فيهـا عاطفة المرأة وعاطفة الأم ، وكثيراً ما تتغلب هذه على تلك . وقد شعر فردريك بهذه التناقضات تعصف في قلبهـا ، فأخذ يبتعد عنهـا شيئاً فشيئاً . ثم شعرت انه ينازعها على قلب ابنتها سولانج التي تلوذ به اكثر مما تلوذ بها ، وتسترشد برأيه اكثر مما تسترشد برأيها ، وترجو مساعدته لها ووقوفه الى جانبها حين تختلف معها حول شأن من الشؤون وقـد خاصمته جورج مرات عديدة بسبب هذا الامر ، ثم طلبت منـــه صراحةً ان لا يتدخل في شؤونها العائلية

وضاعف من حرج علاقاتها ، ان جورج صاند نشرت في تلك الايام رواية بعنوان « لوكريسيا فلورياني » اعترفت فيها بحبها لفردريك وضجرها منه في آن واحد . وقد عرف كل من قرأها انها عنت في الامير شارل بطل الرواية ، صديقهـا شوبان نفسه ، وتحدث الناس بذلك في المجتمعـات ، فغضب فردريك وانقطع عن زيارة صاند . وظلت هي تسأل اصدقاءها عنـه ، وتستعيد في سكون الليل صورته المشجية ، او تتمثّل نهايته المخوفة . وقـد كتبت الى صديقة لها انها قادمـة الى باريس ، وانها ان وجدت ان صحة شوبان تساعده على السفر ، فستحمله على مرافقتها الى نوهان . ولكنها لم تفعل ، ولو فعلت لما قبل طلبها .

*

عاد فردريك في باريس الى وسطه البولوني القديم وعشرة اصحابه القدماء، فوجد في ذلك بعض المتعة والعزاء. ولكن القطيعة بينه وبين جورج أثرت فيه كثيراً، لانه فقد معها الحياة العائلية التي نعم في ظلها ما يقرب من عشر سنوات، فشعر بالوحدة اكثر من كل وقت آخر، وليست الوحدة شيئاً قليلاً بالنسبة الى رجل يشعر بالحاجة الدائمة الى قلب حادب يحنو على قلبه،وعينين باسمتين تستريح فيهما عيناه المتعبتان.

وفي هذه الوحدة المرهقة هاجمه الداء وبرّح به واخذ ينهك البقية الباقية من قواه، فازداد شحوبه حتى بات اشبه بجثة تتحرك، وانطوى على ذاته كئيباً حزيناً حتى لقد انقضت شهور كاملة لم يغادر فيها منزله الا لماماً. بيد ان مرضه لم يؤثر كثيراً في قوته الروحية، وبهذه القوة كان يقاوم الداء الذي يفتك به، محاولاً ان ينقذ نفسه بنور الموسيقى التي كان يودعها كل ما ضنّت به عليه الطبيعة والمجتمع من حب وعافية وقوة وثورة واستمتاع بالحياة. لقد ظل صدره المنهوك ينطوي على قلب نابض، ورأسه الشاحب المتعب يتألق فيه فكر نيّر، وجسمه الهزيل تعمره نفس قوية تأبى الهزيمة في معترك الكفاح.

*

وانشأ الفنان يعاني بؤساً شديداً كان يضاعف من مرضه الجسدي وعذابه النفسي. فقد توقف منذ وقت طويل عن اعطاء الدروس واقامة الحفلات، ومؤلفاته المطبوعة لا تعود

عليه الا بمورد هزيل . وقد تراكمت عليه الديون ، ولم يبق امامه من سبيل للحصول على المال الذي يؤمن علاجه وحاجاته .

في غمرة ذلك البؤس الشديد والداء المبرّح ، علم شوبان بان الثورة قد اشتعلت في بلاده ، ورأى مواطنيه يودعونه واحداً بعد آخر للانضمام الى صفوف الثائرين . وحلم بالعودة الى وطنه هو الآخر ، ان لم يكن للاشتراك في ثورته فلكي يشهد انتصارها . ولكن ما لبث ان عاوده اليأس ، فان جسده أصبح كالخرقة البالية او كقصبة هزيلة يلويها النسيم الرقيق .

كان ذلك في مطلع سنة ١٨٤٨ ، وهي سنة فريدة في التاريخ سمى الشعراء ربيعها : ربيع الشعوب ، لكثرة ما نشب فيها من ثورات دامية في سبيل الحرية شملت القارة الاوربية كلها .

لقد نهض شعب باريس يريد اقرار حقوقه السليبة وحرياته المقدسة ، ونهضت على غراره الجماهير الغفيرة في فيينا وبرلين وموسكو وفرصوفيا وروما تطالب جميعها بحقوقها وتكافح في سبيل حرياتها .

وعزّ على شوبان ان يقعده العجز وبلاده تخوض بحراً من الدماء . ولكنه ذكر قول رفيقه تيتوس له : « لئن ذهبت الى باريس فستجد ثمة بيئة تفهمك وتقدرك ، فتذيع شهرتك ، وتجثو العاصمة الفرنسية لالحانك ، ويرهف لها العالم آذانه

طرباً ، فيتساءل الناس : من هو شوبان ؟ فيقال لهم : انه بولوني ، وان وطنه ليعاني هول الظلم وسوء العذاب في قبضة المستعمر ! فيخفق قلب الدنيا عطفاً على بلادك وشعبك ! »
فاعتزم ان يقيم حفلة موسيقية كبرى ، وقرر ، رغم مرضه الشديد ورغم بوادر الثورة التي توشك ان تهب على باريس ، ان تقام هذه الحفلة في السادس عشر من شباط في مسرح بلييل ، وان ترفع اجورها كي يخصص قسم منها لمساعدة الوطنيين البولونيين .

وكان الجمهور قد تسامع بمرض شوبان ، وادرك ان هذه الحفلة ستكون آخر حفلاته في باريس ، فاقبل الناس عليها اقبالا عظيما . وعزف فردريك تلك الليلة الحانه البولونية الثورية ببراعة والهام لم يبلغهما في حياته قط ، حتى استطاع ان يجعل قلب باريس يخفق عطفاً على بولونيا الشهيدة .

ولما غادر القاعة شاحب الوجه محطم القلب منهوك القوى ، وجد نفسه محاطاً بموجة متدافعة من الجماهير تهتف له ولبولونيا وللحرية ، وهي الجماهير التي فاتها حضور الحفلة لغلاء اجورها او لامتلاء القاعة ، فلم تشأ ان يفوتها الاشتراك في تكريم رجل عظيم .

*

كان النجاح الذي لاقته هذه الحفلة ، حافزاً لشوبان الى اقامة حفلة ثانية ، فتعاقد مع مسرح بلييل بشأنها وعيّن موعدها ، ولكن الثورة ما لبثت ان انفجرت في فرنسا ،

ولم يبق من الممكن اقامتها ، بل لم يبق من الممكن استمرار الحياة الفنية فيها بازدهارها السابق ، فاعتزم الرحيل الى انكلترا التي كانت في البدء غاية رحلته لما نزح عن فرسوفيا

وكان قد تعرف في باريس بفتاة ايقوسية تدعى جان ستيرلنغ تتمتع بثروة مفرطة ومواهب موسيقية ، وقد تلقت الفتاة عليه بعض الدروس واحبته حباً سامياً يقرب من العبادة ، فكانت ملاكه الحارس اثناء اقامته في البلاد الانكليزية وفيما تبقى من سني حياته ، كما كانت بعد وفاته خير من حفظ ذكراه وعمل على احيائها وتكريمها

كانت جان ستيرلنغ وديعة طيبة رحوماً ، فلم تدع لفردريك سبيلاً للتذمر ، او للشعور بانه عبء عليها ، بل جعلته يعتقد ، كما هو الواقع ، بان حياتها قد اشرق فيها نور السعادة لانها تعرفت به ، وعاشرته ، وتذوقت فنه ، واخلصت له ، هو العبقري الذي تشرّفها صداقته

وقد استقبلته في لندن بغبطة عظيمة ، وتوفرت على تدبير شؤونه ، وتنظيم زياراته ، ودعوته الى العزف في ارقى المجالس والقصور الفخمة ، ولم تمض عدة شهور حتى كانت اكثر الاسر الارستوقراطية قد استقبلت شوبان ، وسمعت موسيقاه ، وكان ممن تعرف بهم في خلال هذه الحفلات المتواصلة ، الكاتب ديكنز والفيلسوف كارليل واللادي بيرون زوجة الشاعر الكبير .

وعاد ذلك على فردريك بمال وافر ، انفق بعضه على

حاجاته اليومية وخصص الباقي لوفاء قسم من ديونه . الا ان ذلك العمل المتواصل قد انهك قواه مرة اخرى ، واخـــذ يبصق الدم من جديد . فدعته جان ستيرلنغ للسفر معها الى ايقوسيا ، حيث حلّ ضيفاً على صهرهـا اللورد توربيشن في قصره بضواحي ايدمبورغ . وانصرفت هناك الى العناية به . فظل ثمة حتى شهر آب ، ولا همّ له الا استعادة عافيتـــه الجسدية ليستعيد معها عافيته الروحية .

كان ذلك الداء الوبيل الذي يتلف قواه يوماً بعد يوم ، يبعثه على القلق الشديد ، قلق شاب نهم الى الحياة والابداع ، يشعر بانـه يفنى شيئاً فشيئاً دون ايّ امل بالشفاء . ولم يكن جسده وحده هو الذي يتمزق وتضعف مقاومته ، بـل اخذت قواه الروحية نفسها تضعف ايضاً وتذوي . واعـتراه إعياء قاتـــل . فانطفأت شعلة العبقرية في نفسه ، أو كادت تنطفىء . ولم تعد تعتلج في صدره عاطفة او محبة او حماسة تذكيها . واتجه اهتمامه منذ ذلك التاريخ حتى آخر حياتـه ، الى الشؤون الصغيرة . كان ُيعنى بشَعره واناقته وثيابه وطعامه وأثاث بيته عناية برجوازي مترف او غانية لعوب ، وكأنه اكتفى بما انتجه حتى ذلك العهد فلم تبق به رغبة او قدرة عـــلى انتاج اثر فني جديد .

وفي شهر آب عـــاد الى انكلترا فأقام في مانشستر وغلادسكوف وايدمبورغ ، ثلاث حفلات كان قد تعاقـــد عليها من قبل . وبلغ لندن في اوائل الخريف محطم الجسم

مهدود القوى ، فانزوى في منزله ولازم فراشه ، وصديقتـــه الايقوسية تواصل عنايتها به ، ولا تنسى حتى قراءة الانجيـل له والايحاء اليه بان العالم الآخر خير من هذا العالم وأبقى .

وشاع في باريس ان شوبان سيتزوج جان ستيرلنغ ، فكتب الى صديقه وتلميذه غوتمان : « كلا ، لست افكر في زوجة ، ولكني افكر بالمنزل الابوي ، بامي ، واخـتي ... وفني، أين مضى ؟ وقلبي ، أين اودعته ؟ اني لا اكاد أتذكر كيف يغني الناس في بلادي . والعالم يتلاشى من حولي بطريقـــة عجيبة . إني أفقد نفسي . ولم تبقَ لي أيـــة قوة . اني لا اشكو لك ، ولكنك تسألني وانا اجيبك : اني اقرب الى النعش مني الى سرير العرس ... »

ولكن فردريك شوبان يأبى وهو على قيـد خطوة من قبره ، إلا ان يعزف امام الجمهور مرة اخرى . وقد جاء هذا الحادث اشبه برمز عظيم اختتم به الفنان حياته العظيمة . كان ذلك في تشرين الثـاني من عام ١٨٤٨ ، وقد وافت الانبـاء معلنة اخفاق الثورة في فرسوفيا ، واقبلت وفود جديدة من اللاجئين البولونيين الى العواصم الاوربية ، فاقيمت في لندن حفلة راقصة لاعانتهم ، واشترك الفنان في تلك الحفلة تكريماً لوطنه ، وسمع العـــالم فردريك شوبـــان يعزف ، لآخر مرة في حياته ، اللحن البولوني الثوري ، ذلك اللحن الخـالد الذي عبر فيه تعبيراً قوياً عن حقده على المستعمرين ، وعن حبه لوطنه وشعبه .

آخر ايام شوبان

●

عاد فردريك الى باريس في شهر كانون الثاني سنة ١٨٤٩ عملًا بنصيحة الطبيب ، لأن برد لندن وضبابها قد أضرّا به كثيراً . وكانت جان ستيرلنغ تود لو يرافقها الى ايقوسيا ، ولكنه أصرّ على الذهاب الى باريس ، كأنه وقد شعر بدنو أجله ، أراد ان يكون في مكان أليف اليه ، فضلًا عن ان فكرة العودة الى فرسوفيا كانت ما تزال تعاوده وتلحّ عليه ، اذ كان يشقّ عليه ان يموت في ارض أجنبية بعيداً عن أمه التي ما زالت تنتظره منذ بضعة عشر عاماً .

وكان الفنان قد اراد الابتعاد عن جان كي تنساه ، اذ كان يقلقه تعلقها برجل قد اصبح نصفه في القبر . وقد اجاب بهذه الكلمات ذاتها ، اصدقاءه الباريسيين الذين سألوه لماذا لم يتزوج الآنسة ستيرلنغ .

وليس من يدري هل فكرت هذه الفتاة بالزواج من شوبان ، ولئن فكرت فيه حقاً فلا ريب في ان الغرض الاساسي الذي كانت تهدف له هو التفرغ لخدمته ، لعلها تستطيع انقاذه من الداء الذي انشب مخالبه في صدره . فقد

كان محبها له حباً صادقاً طاهراً .

وكانت مستعدة للقيام في سبيله باية تضحية كانت ، ولما سمعت بعد شهور ان صديقها قد وقع من جديد فريسة للفاقة ، وتراكمت عليه الديون مرة اخرى ، ارسلت اليه مع صديق لهما خمسة وعشرين الف فرنك ورجته ان لا يطلع فردريك على مصدرها . ولكن الفنان علم بالامر ، لأن النقود كادت تفقد ، اذ اودعها ذلك الصديق في مغلف ، وسلمه إلى الخادم ، فوضعه هذا وراء الساعة وهو يجهل ما فيه ، وظل هنالك حتى جاءت جان الى باريس وتحرت عن المال فوجدته في مكانه لم تمسه يد .

ورفض فردريك اول الأمر هذه الهبة من جان ، ولكنه ما لبث ان قبلها واستعان بها على التحرر من نير الفقر الذي ارهقه بثقله الفادح .

وقد استطاع اصدقاؤه ، بواسطة هذا المبلغ والمساعدات التي قدموها له بانفسهم دون معرفة منه ، ان يوفروا له اسباب الراحة في منزل عال يطل على باريس ، فتبدو له من نوافذه الحياة بجميع اشكالها والوانها . فتألق في قلب الفنان قبس من الفرح . وبدأ يقضي ايامه في كتابة الرسائل الى اصدقائه ، او في المطالعة الى جانب الشرفة ، او في تأمل المناظر الجميلة التي تنبسط تحت عينيه ، او في مراجعة مؤلفاته الموسيقية متلفاً بعض المخطوطات ومصلحاً بعض الالحان.

على ان الفنان المشرف ، لم يلبث ان شعر بالوحدة

شعوراً خانقاً قوياً ، فكتب الى افراد اسرته رسالة مؤثرة اشبه برسالة طفل مريض يريد ان يُجامل ويُدلل ، يطلب اليهم فيها ويرجوهم ملحفاً في الرجاء ، ان يوافوه الى باريس مهما كلفهم ذلك . فاستجابت اخته لويز الى ذلك النداء المؤلم ، واقبلت الى العاصمة الفرنسية مع ابنتها الصغيرة ، ففرح بهما فردريك فرحاً عظيماً ، غير ان فرحه لم يطل كثيراً لان وطأة الداء قد اشتدت عليه حتى لم يبق في مكنته الكلام الا بجهد كبير .

وقد قضى ذلك الصيف بطوله وهو لا يكاد يغادر فراشه، وليس له من اسباب السلوى الا ان يُقبل احد اصدقائه او تلامذته فيقرأ له بصوت عال ، لأن المطالعة نفسها اصبحت عبئاً عليه وجهداً لا يستطيع القيام به . ولم يكد يقبل شهر تشرين الأول ، حتى بدا للجميع ان نهايته قد اقتربت ، بعد ذلك الموت البطيء الذي طال أمده وطال عذابه فيه

ولما دخل الفنان الكبير في دور الاحتضار ، قدم الأب جيلو فيسكي صديق طفولته لزيارته ، فاعترف له باكياً . وفي ذلك اليوم نفسه ، شعر شوبان بضيق شديد في صدره ، فقال بصوت هادىء : « الآن ادخل في طور النزع » وسمعه اصدقاؤه المحيطون به يتمتم بعد قليل : « ولكنها قالت لي مع ذلك ، اني لن اموت الا بين ذراعيها ! » ولم يعرف اولئك الاصدقاء المقربون هل كان يعني ماريا ام جورج صاند ؟

وفي اليوم التالي ، وهو اليوم الخامس عشر من تشرين

الاول ، اقبلت الكونتس دلفين بوتوشكا لزيارته من نيس ، فسُر بها شوبان وطلب منها ان تغني له ، فأخذت تغني بصوتها الشجي ، والدمع يطفح من عينيها ، اغاني بولونية قديمة كتلك الاغاني التي ناغته بها امه في مهده ، فشب على حبها وخلدها في فنه .
واستغرق فردريك على ذلك النغم في سدر عميق ، حتى خيل لاصدقائه الراكعين حول سريره انه قضى نحبه . ولكنه ظل يقاوم حتى اليوم التالي . وفي هذا اليوم استفاق من غيبوبته ، واشار الى من حوله بانه يريد ان يكتب ، فلما اعطي قلماً وورقة خط هذه الكلمات : « ان التراب سيخنقني ارجو ان يُفتح جسدي كي لا ادفن حياً » . وبعد قليل تمم بضع كلمات طلب فيها بالحاح ان تحرق مخطوطاته غير الكاملة .

وفي مساء اليوم السادس عشر من شهر تشرين الثاني ، انشأ يُدني اصدقاءه منه مودعاً اياهم واحداً واحداً . وركع الجميع حول السرير ، بينما كان الأب جيلوفيسكي يتلو آيات الانجيل . ولما دقت الساعة الواحدة انحنى عليه الطبيب وسأله أما يزال يتألم ؟ فأجابه : أبداً !

وما لبثت ان انطفأت تلك الشعلة التي تألقت تسعة وثلاثين عاماً فاعطت الانسانية كثيراً من الحرارة والنور ، وتركت للعالم رسالة اخاء وحب .

وسجي الفنان في الغداة في نعشه ، ثم نثرت عليه تلك الحفنة من تراب وطنه التي كان ما يزال يحتفظ بها في الآنية الفضية التي سلمها اليه رفاقه في فرسوفيا ليلة الوداع .

مراجع الكتاب

●

Guy De Pourtales : Chopin, ou le poète.

Antoine Granowicz : Chopin.

Jacques Stehman : Chopin.

Henri Bidou Chopin.

G. Jean-Aubry Hommage à Chopin.

Edoward Ganche : Frédéric Chopin.

I. Paderewski : A la mémoire de Chopin.

Albertine Morin-Labrecque : La vie et la mort de Frederic Chopin.

Jean-Paul Palewski : Vies Polonaises.

Henry Woollett : Histoire de la musique.

فهرست

٤٧ - ٤ - ٧٢